جابرييل جارثيا ماركيز

حكاية ايرنديرا البريئة

ترجمة: د. طلعت شاهين



الحكاية العجيبة والمدهشة
لـ "إيرنديرا" البريئة وجدتها الشريرة

وقصص أخرى

للكاتب العالمي

جابرييل جارثيا ماركيز

ترجمة وتقديم

د. طلعت شـــاهين

حكاية ايرنديرا البريئة



حكاية
ايرنديرا البريئة

المؤلف :

جابرييل جارثيا ماركيز

ترجمة وتقديم :

د. طلعت شاهين

الطبعة الثانية : ابريل ٢٠٠٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

977-5634-04-0

صور الغلاف :

أرشيف سنابل للنشر والتوزيع

تصميم وتنفيذ الغلاف:

كامل جرافيك



الإشراف العام

د. طلعت شاهين

مدير التحرير

علي حامد

المراسلات:

ص.ب.: 22

الحي المتميز. مدينة 6 أكتوبر

مصر

Tel.:
(202) 835 40 69
Mob.:
(2012) 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com

تقديم

يُعتبر الكاتب الكولومبي "جابرييل جارثيا ماركيز" أحد أبرز الكُتاب الذين يمثلون ما يطلق عليه النقاد اسم "الواقعية السحرية" في الأدب، تلك المدرسة الأدبية التي نشأت فى أمريكا اللاتينية. قمة هذا الإبداع الذي وصل مداه عام 1967 بنشر رواية "مائة عام من العزلة"، التي كانت سبباً في شهرة كاتبها "جابرييل جارثيا ماركيز" المولود عام 1928، والذي خرج من نطاق قريته الكولومبية "أراكاتاكا" الواقعة في مملكة "الموز" القديمة "ماكوندو" على الشاطئ الشمالي لكولومبيا، وتَوَجت حياته الأدبية الثرية بفوزه بجائزة نوبل للآداب عام 1982، وفتحت – في الوقت ذاته – الطريق واسعاً أمام كُتاب أمريكا اللاتينية ورواية الواقعية السحرية لتتربع على قمة الإبداع العالمي.

حياة هذا الكاتب ثرية بالنشاط والمتاعب، فقد عاش فى كنف جده صبياً إلى أن انتقل للحياة مع أبيه موظف التلغراف البسيط الذي حاول أن يجعل منه محامياً شهيراً، فإذا به يغادر دراسة القانون وهو في منتصف الطريق، لينضم إلى العاملين في مهنة المتاعب: "الصحافة"، ملتحقاً بصحيفة "الإسبكتادور" التي بدأ ينشر فيها قصصه القصيرة منذ عام 1947، ثم بعثت به الصحيفة عام 1954 مُراسلاً لها في "روما"، فأتاحت له إقامته هناك دراسة فن السينما، وتعمق في دراسة السينما التسجيلية والتجريبية، ومن هناك انطلق ليسافر إلى بلاد شرق أوروبا، ولكن دكتاتور كولومبيا – في ذلك الوقت – "روخاس بينيا" قرر حرمان الكاتب من متعة العمل

والسفر، فأصدر أوامره بإغلاق الصحيفة، ليجد "جابرييل جارثيا مـاركيز" نفسه في شوارع باريس، بلا مورد رزق.

بعد فترة من التشرد عاد إلى بلاده ليتزوج، ثم يرحـل للعمـل فـي الصحافة الفنزويلية، ويصدر مجموعته القصصـية الأولـى "جنـازة الأم الكبيرة" عام 1962. وكان قد أصدر– مـن قبلهـا – روايتـه القصـيرة "الجنرال لا يجد من يكاتبه" عام 1961، والتي يعتبرها النقاد البذرة التـي نشأت منها أهم أعماله الأدبية؛ فذلك الجنرال الذي عاش على أمجاده فـي الحرب الأهلية، وكان ينتظر من يعترف بتلك البطولات، أصـبح البطـل الحقيقي في رواياته التالية، ثم جاءت الرواية القصيرة الأخـرى "سـاعة النحس" الصادرة عام 1963.

لكن بصدور روايته "مائة عام من العزلة" عام 1967، انفتحت أمامه الأبواب جميعاً، حيث تمت ترجمة أعماله إلى العديد من لغات العالم، ومنها لغتنا العربية، ولم تتمكن أي رواية من تلك الموجة المنتمية إلى الواقعيـة السحرية من بلوغ الشهرة التي حازت عليها هذه الرواية، وكما يقول عنها الكاتب المكسيكي المعروف "كارلوس فوينتش": (إنه لا يوجد عمل أدبـي ثري بالقدرة على التعبير الفني، كما حدث في "مائة عام من العزلة"). بعد هذه الرواية قرر "ماركيز" أن ينتقل للإقامة– بعض الوقت– في برشـلونة عاصمة النشر في إسبانيا، تلك الفترة التي شهدت كتابة روايتـه "خريـف البطريرك" التي صدرت عام 1975.

وبعدها عاد "ماركيز" إلى بلاده، ليدير مجلة"ألترناتيفا" اليسارية، التـي وضعته في عيون أعدائه باعتباره أحد الوجوه المعادية للإمبرياليـة فـي

أمريكا اللاتينية، وقربته من العديد من الزعماء المناضلين وعلى رأسهم الزعيم الكوبى " فيدل كاسترو"، الذي لا يزال يعتز بصداقته حتى الآن.

وبعد ذلك واصل "ماركيز" إبداعه الأدبي في مجالي الرواية والقصة القصيرة، فصدرت له العديد من الأعمال، مثل: "الحب في زمن الكوليرا" و"الجنرال في متاهته" و" الحب وشياطين أخرى" ، وغيرها من الأعمال الأدبية.

ولكن روايته "الحكاية العجيبة والمدهشة لإيرنديرا البريئة وجدتها الشريرة" ، التي نقدم للقارئ العربي ترجمتها الكاملة عن أصلها الإسباني ، صدرت عام 1972، وذلك في كتاب يضم سبع قصص أخرى، كتبها المؤلف في الفترة ما بين عامي 1968 و1970. ثم تم إعدادها للسينما في فيلم يحمل الاسم ذاته، ولعبت فيه دور الجدة الممثلة اليونانية الشهيرة "ايرينا باباس"، التي تعتبر دورها في هذا الفيلم تجربة فريدة، والغريب أن "ماركيز" الذي يعد من أفضل كُتاب السيناريو السينمائي في أمريكا اللاتينية رفض وضع سيناريو هذه الرواية، وإن اشترط أن يتم العمل تحت إشرافه.

تختلف هذه الرواية إلى حد كبير في تكوين شخصياتها عن غيرها من أعماله السابقة عليها، وإن تضمنت العديد من المشاهد التي تتكرر في كل أعماله الروائية تقريباً، فهي تعالج الفساد والاستغلال الذي هو سمة زماننا وزمانه الذي أجبرنا على أن نعيشه، فلا تجد الجدة حرجاً في استغلال الحفيدة واستنزاف قُواها، على الرغم من تأكيدها دائماً على أنها وريثتها الوحيدة وحارسة بقايا "عظام" الجد والأب، اللذين تركاها أمانة في عنق الجدة، وعندما تُخطيء الحفيدة بعد أن خارت قواها، ولم تستطع الاستمرار

في هذه العبودية، عاقبتها الجدة، وأرادت أن تسترد ما تسببت فيه من خسارة، فباعت بكارتها لبقال القرية، وتاجرت بجسدها في القرى والصحراوات الشاسعة، التي جابتها تحت الشمس الحارقة لاسترداد كل ما فقدته في حريق البيت الكبير.

في مقابل هذا الشر المتجسد فى الجدة أو العاهر السابقة، نجد البراءة الكاملة تتجسد فى الحفيدة "ايرنديرا"، التي تحاول أن تكون وفية لجدتها بكل ما تستطيع من إرادة، فتنقاد إليها وتطيعها إلى أبعد حد، ولا تحاول أن تتمرد حتى أنها ترفض الهرب مع مساعد سائق شاحنة التهريب الذي وجدت منه معاملة لطيفة أغرتها وقربتها منه، وبذلت أقصى جهد للهرب من دير الرهبان الذين اختطفوها ليلا، في محاولة لإنقاذها من شرور الجدة، ولكن...

الصور العديدة التي كانت من نتاج القصص الشعبي الذي يدور في تلك الصحراوات الحارقة في وسط أمريكا اللاتينية، تتكرر أيضاً في هذه الراوية، كما تكررت في الأعمال الروائية والقصصية الأخرى لكاتبنا "ماركيز"، فنجد الاحتفال الشعبي والديني الذي يجمع العديد من الصور السحرية: الرجل الملاك الذي سقط في الوحل ذات صباح ممطر، وحَبَك الناس من حوله الحكايات، وهي صورة متكررة ومكتوبة في قصة مستقلة هي: "رجل عجوز جداً له أجنحة ضخمة" وحكاية "الفتاة العنكبوت" التى نجدها في القصة نفسها، كما نجدها فى أعمال أخرى.

بعض الصور المثيرة للدهشة التي تكشف عن فساد الإدارة في تلك المنطقة من العالم، مثل "السناتور" المرشح لعضوية البرلمان الذي وقع على شهادة تثبت حسن سير وسلوك الجدة الشريرة، مقابل الدعاية

الانتخابية له في الأماكن التي تمارس فيها البغاء، وقائد الشرطة المحلية الذي انشغل عن أداء واجبه الحقيقي في حماية الناس بتصويب رصاص بندقيته إلى السحاب، ليسقط المطر الذي لا يريد الهبوط لري هذه الصحراء القاحلة... إنها صور ميتافيزيقية لحياة فيزيقية تختلط فيها العوالم الظاهرة والخفية. إنها عوالم الكتابة في إطار الواقعية السحرية، التي يقول عنها "ماركيز" نفسه: "إنها قصص توجد في الحياة يقصونها على الصغار للتسلية، ويتداولها الكبار كحقيقة مؤكدة إلى جوار حقائق الحياة الأخرى".

تعتبر هذه الرواية " الحكاية العجيبة والمدهشة لإيرنديرا البريئة وجدتها الشريرة" علامة للكتابة القصصية في إطار الواقعية السحرية، التي امتد أثرها إلى الكتابة القصصية والروائية في العالم كله، ولا تزال تثير لدى الباحثين والنقاد الدهشة للأدب في تلك المنطقة من العالم، فقد وضع "جابرييل جارثيا ماركيز" مع غيره من كتاب تلك المنطقة مثل : "خورخي لويس بورخيس"، و"خوليو كورتاثار"، و"كارلوس فوينتس"، و"ماريو بارجاس يوسا"، .. إضافة إلى آخرين ، قواعد الكتابة الأدبية المعاصرة التي سوف تظل خالدة لسنوات طويلة.

في هذه الطبعة الجديدة من هذه الرواية أضفنا بعض القصص القصيرة التي تبدو لصيقة بالرواية نفسها، وسيلاحظ القارئ ذلك، ليس من قبيل تضخيم العمل من ناحية عدد الصفحات، بل ليتعرف أكثر على الطريقة التي يفكر ويكتب بها هذا المؤلف الرائع الذي أدهش العالم ولا يزال قادراً على إثارة دهشة كل محبي الأدب بجميع لغات الأرض.

✍ د. طلعت شاهين

الحكاية العجيبة والمدهشة
لـ "إيرنديرا" البريئة وجدتها الشريرة

-1-

كانت "ايرنديرا" تُحمم جدتها عندما هبت ريح تعاستها، فقد اهتز البيت الإسمنتي الضخم التائه في عزلة الصحراء من أساسه منذ أول هبة، لكن "إيرنديرا" وجدتها كانتا معتادتين على أخطار الطبيعة الغامضة، فلم تشعرا بقوة الرياح أثناء وجودهما في الحمام المزين بطواويس متعددة من الفسيفساء الساذجة، والتي تشبه الحمامات الرومانية.

كانت الجدة عارية، وضخمة كحوت أبيض ضخم يسبح في الحوض المرمري، ولم تكن الحفيدة تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، كانت خامدة وهشة العظام، وأكثر وداعة من أي طفلة في مثل سنها، تبدو على وجهها مسحة من القناعة الصارمة المحاطة بهالة قدسية، كانت تصب على الجدة ماء مغليا مخلوطا بالأعشاب المُطَهِرة والأوراق الذكية الرائحة، كانت تلك الأوراق تلتصق بظهر الجدة الشهي، وبشعرها المعدني المرسل، وبالكتفين الموشومين بقسوة برسوم تشبه تلك التي يرسمها البحارة على أجسادهم.

قالت الجدة:

- حلمت بالأمس بأني أنتظر رسالة ما.

ردت "ايرنديرا" مستفسرة وهي التي لا تتكلم إلا لأسباب قاهرة:

- في أي يوم كان الحلم؟

- الخميس.

قالت "ايرنديرا":

- الرسالة كانت تحمل أنباء سيئة، إذن لن تصل أبداً.

عندما أنهت حمّامها رافقت الجدة إلى غرفة نومها، كانت الجدة بدينة جداً لدرجة أنها لم تكن تستطيع السير إلا مستندة إلى كتف حفيدتها، أو متوكئة على عصا تشبه تلك التي يحملها الأساقفة، لكن حركتها المتثاقلة كانت تنم عن عظمة متوارثة، وتنام في غرفة مرتبة بذوق مبالغ فيه إلى درجة الجنون، وهذا الذوق كان يطبع البيت كله، كانت "ايرنديرا" تحتاج إلى ساعتين لتزيين الجدة، فقد حلت جدائل شعرها شعرة شعرة، ثم عطرتها ومشطتها وألبستها فستاناً مزيناً بزهور استوائية، ووضعت على وجهها مسحوق التلك، ثم طلت الشفاه باللون الأحمر، والخدين بمسحوق ملون، وخضبت الجفون بالمسك، ثم طلت الأظافر بطلاء صدفي اللون. وعندما أنهت عملها بدت الجدة كدمية كبيرة أكبر من حجم الإنسان الطبيعي، حملتها إلى حديقة من الزهور الاصطناعية الذابلة مثل تلك التي تبدو مرسومة على الفستان، أجلستها على أريكة واسعة، تنتهي بتاج، فتبدو كعرش ملكي، وتركتها تستمع إلى اسطوانات تصدر عن فونوغراف مزعج.

بينما كنت الجدة تبحر في مستنقعات الماضي، انشغلت "ايرنديرا" بتنظيف البيت الذي كان يبدو مظلماً وتنتشر فيه برقشة من الأضواء الصغيرة التي تنفذ إلى داخله، كان أثاثه غريباً، يضم تماثيل لقياصرة خياليين، وخيوطاً من الدموع، وملائكة مرمرية، وبيانو ذهبي اللون،

وعدة ساعات حائطية في أوضاع وأحجام مدهشة. كان بالبيت خزان لتخزين المياه لعدة سنوات، حيث كان هناك هندي يذودهما بـه مـن الينابيع القريبة، وكانت بالخزان حلقات جانبية ربطـوا فـي إحـداها نعامة كسيحة، فكانت الطائر الوحيد الذي استطاع أن يعيش في هـذا المناخ التعس، كان المنزل بعيداً عن كل شـيء، يقبـع فـي عمـق الصحراء، على بعد من قرية ذات شوارع بائسة ومحرقة، تنتحر فيها التيوس يأساً عندما تهب عليها رياح التعاسة.

هذا الملجأ الغريب، كان قد بناه زوج الجـدة، وهـو مهـرب ذو شهرة أسطورية، كان يدعى "أماديس"، أنجبت منه الجدة ولداً أسـمته "أماديس" أيضاً، هذا الابن هو والد "ايرنديرا". لا يعرف أحد أصـول هذه العائلة ولا جذورها القديمة، ولا أسباب حياتها في هذا المكـان، والرواية الأكثر شيوعاً على ألسنة الهنود الذين يسكنون تلك المنطقة، أن "أماديس" أنقذ زوجته الجميلة من ماخور في جزر الأنتيل، حيـث طعن رجلاً بسكين، وأخذها لتعيش معه في بـراءة الصـحراء إلـى الأبد. وعندما رحل "آل أماديس"- أحدهما قتلته الحمى والآخر مـات مطعوناً في شجار- قامت المرأة بدفن الجثتين فـي فنـاء البيـت، وسرّحت الخادمات الفقيرات الأربع عشرة اللاتي كن يخدمن الأسرة، وواصلت حياتها الملتفة بأحلام العظمة، في ظلال البيـت المـوحش بفضل تضحيات الحفيدة، التي نشأت تحت رعاية الجدة منذ ولادتها.

كانت "ايرنديرا" تحتاج كل يوم إلى ست ساعات، تقضيها في ملء الساعات وضبطها، وفي ذلك اليوم الذي هبـت عليهـا فيـه ريـاح تعاستها، لم تكن في حاجة إلى القيام بهذه المهمة، لأن الساعات كانت مضبوطة حتى صباح اليوم التالي، لكن كان عليهـا القيـام بمهمـة

تنظيف الجدة وإلباسها ثيابها، وتنظيف الحجرات، وإعداد طعام الغداء، وتلميع الزجاج، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة عندما بدّلت الماء في الدلو الذي تشرب منه النعامة، وروت الشجيرات الصحراوية المزروعة على قبري "آل أماديس" المتلاصقين، فقد كان عليها أن تسير في عكس اتجاه الريح القوية التي كانت تهب بقوة شديدة، لكنها لم تشعر بالنذير السيئ، ذلك الذي كانت تحمله رياح تعاستها، في الساعة الثانية عشرة كانت تصقل آخر كؤوس الشمبانيا عندما اشتمت رائحة الحساء، وكان عليها أن تقوم بمعجزة لتصل الـ المطبخ بسرعة دون أن تدمر بخطواتها الزجاج الفينيسي الثمين.

استطاعت بصعوبة رفع القدر الذي بدأ يفيض على الفرن، ثم وضعت الخضراوات التي كانت معدة من قبل على النار. وانتهزت الفرصة لتجلس وتستريح قليلاً على مقعد المطبخ، أغلقت عينيها، ثم فتحتهما بعد ذلك، دون أن تبدو عليهما أي علامة من علامات التعب، وبدأت في وضع الحساء في الطبق، كانت تمارس عملها نائمة.

كانت الجدة جالسة وحدها، على طرف مائدة كبيرة؛ مرصعة بشمعدانات فضية وأدوات طعام لاثني عشر شخصاً. دقت الناقوس الصغير فأسرعت "ايرنديرا"؛ حاملة طبق الحساء وقد تصاعد منه البخار، وبينما كانت "ايرنديرا" تقدم الحساء، لاحظت الجدة حركتها النائمة فمررت يدها أمام عينيها كما لو كانت تنظف زجاجاً غير مرئي، لم تلحظ الصغيرة اليد، فتابعتها الجدة بنظراتها، وعندما استدارت "ايرنديرا" لتعود إلى المطبخ، صاحت الجدة:

– "ايرنديرا".

أفاقت الصغيرة من شدة المباغتة، فتركت الطبق يسقط من يــديها على البساط.

قالت الجدة بحنان حقيقي:

- لا عليك يا ابنتي، لقد عدت إلى عادة السير نائمة.

قالت "ايرنديرا" معتذرة:

- إنها عادة الجسد.

التقطت طبق الحساء وهي لا تــزال تحــت تــأثير دوار النــوم، وحاولت أن تنظف البقعة التي على البساط، لكن الجدة نهتهــا عــن ذلك:

- اتركيه. اغسليه هذا المساء.

أصبح على "ايرنديرا" أن تغسل بساط غرفة الطعام، بالإضافة إلى الأعمال الأخرى التي عليها أن تمارسها يومياً في فتــرة الظهيــرة. وانتهزت فرصة وجودها في المغسل لتغسل ملابــس يــوم الاثنــين أيضاً، أثناء ذلك كانت الريح تحوّم حول البيت بحثاً عن ثقب تتســلل منه، كانت هناك أشياء كثيرة يجب عملها، حتى هــبط الليــل علــى "ايرنديرا" دون أن تنتبه إليه، وعندما أعــادت البســاط إلــى غرفــة الطعام، كانت ساعة النوم قد حانت.

كانت الجدة تعزف على البيانو طوال المساء، وتدندن مقلدة أغاني عصرها، وهالات المسك والدموع لا تزال تبدو في جفونهــا، لكــن عندما تمددت في السرير بقميصها الشفاف، تلاشت مرارة الــذكريات الجميلة.

قالت لـــ "ايرنديرا":

- اغتنمي الفرصة غداً، واغسلي بساط الممر الذي لم ير الشمس منذ الأزمنة الصاخبة.

أجابت الصغيرة:
- نعم يا جدة.
وأمسكت بمروحة من الريش، وبدأت تُرَوِّحُ للسيدة القاسية، التي تلت عليها النظام الليلي فيما كانت تغوص في النوم:
- اكوي كل الثياب، قبل أن تأوي إلى الفراش، لكي تتنامي بضمير هادىء.
- نعم يا جدة.
- تفقدي كل خزائن الملابس، لأن العثة تكون أكثر جوعاً في الليالي شديدة الرياح.
- نعم يا جدة.
- في ما تبقي لك من وقت، أخرجي الزهور إلى الفناء لتتنفس.
- نعم يا جدة.
- وقدمي للنعامة طعامها.
كانت الجدة قد نامت ولكنها واصلت إصدار أوامرها، وورثت الحفيدة عنها فضيلة مواصلة الحياة أثناء النوم. خرجت "ايرنديرا" من الغرفة دون أن تُثير ضجة، وقامت بالأعمال الليلية الأخيرة، مستجيبة دائماً لوصايا الجدة النائمة.
- اسقي القبرين.
- نعم يا جدة.
- قبل أن تأوي إلى فراشك تأكدي أن كل شيء في مكانه، لأن الأشياء تتألم جداً عندما لا تنام في أماكنها.
- نعم يا جدة.
قالت لها الجدة:
- وإذا حضر "آل أماديس" اطلبي منهم ألا يدخلوا، لأن عصابات "بورفيريو جالان" تنتظرهما لتقتلهما.

كفت "إيرنديرا" عن إجاباتها، لأنها تعرف أن الجدة قد بدأت في الهذيان، لكن لم يفتها تنفيذ أي أمر أمرتها به الجدة. وعندما انتهت من التفتيش على متاريس النوافذ، أطفأت آخر الأضواء وأخذت شمعداناً من غرفة الطعام، وشقت على ضوئه طريقها إلى غرفة نومها، فيما كان التنفس العميق للجدة النائمة يملأ فترات سكون الرياح.

كانت غرفة "ايرنديرا" مترفة أيضاً، وإن لم تكن مثل غرفة الجدة تماماً، لكنها كانت مليئة بدمى من القماش، وحيوانات ميكانيكية بقيت من زمن طفولتها القريب، لم تكن لدى "ايرنديرا" رغبة في خلع ملابسها، من شدة الإرهاق الذي أصابها من الأعمال اليومية القاسية، ولم تضع الشمعدان على المائدة الليلية، فألقت بنفسها على السرير. وبعد قليل اندفعت ريح تعاستها إلى غرفة النوم كقطيع من الكلاب، وألقت بالشمعدان على الستائر.

-2-

في الصباح كانت الرياح قد هدأت، وبدأت قطرات كبيرة ومتقطعة من المطر في الهطول، فأطفأت النيران الأخيرة؛ وجففت رماد البيت المحترق، حاول أهل القرية وأكثرهم من الهنود الحمر إنقاذ ما تبقى من الكارثة، فلم يتبق سوى: جثة النعامة المتفحمة، وهيكل البيانو الذهبي، وجذع تمثال. كانت الجدة تنظر إلى حطام ثروتها بحزن شديد، أما "ايرنديرا" فقد كفت عن البكاء وهي جالسة بين قبري "آل أماديس"، وعندما تأكدت الجدة من أنه لم يبق إلا القليل من الأشياء السليمة بين الأنقاض، نظرت إلى الحفيدة في حزن ورقة، وقالت:

– يا صغيرتي المسكينة، إن حياتك لن تطول لتعوّضيني عن هذه الخسارة.

منذ ذلك اليوم نفسه بدأت "ايرنديرا" في التعويض عن تلك الخسارة، فقد قادتها الجدة تحت هدير المطر وسلمتها إلى بقال القرية، أرمل قذر، كان معروفاً بأنه يدفع ثمناً كبيراً نظير فض بكارة العذراوات، وأمام رجاء الجدة قام الأرمل بفحص "ايرنديرا" بصرامة خبيرة: قدّر قوة فخذيها؛ وحجم نهديها؛ وقطر ردفيها، ولم ينطق بكلمة أثناء تقدير قيمتها، ثم قال:

– لا تزال صغيرة ولها ثدي يشبه ثدي كلبة.

ثم أمر "ايرنديرا" أن تصعد على الميزان ليقدر حساباته بالأرقام، كانت تزن أثنين وأربعين كيلوجراماً.

قال الأرمل:

– لا تساوي أكثر من مائة بيزو.

هاجت الجدة وصرخت:

- مائة بيزو مقابل هذه المخلوقة العذراء، لا يا رجل، هـذا يسـيء كثيراً لاحترام الفضيلة.

قال الأرمل:

- لن أتجاوز مائة وخمسين.

ردت الجدة:

- هذه الصغيرة تسببت لي في خسارة تزيد عن المليون بيزو، وبهـذا الحال تحتاج إلى قرنين من الزمان لتعوضني عما تبقى.

قال الأرمل:

- لحسن الحظ أن الشيئ الوحيد الذي تملكه هو سنها الصغير.

كانت العاصفة تهدد البقالة بالسقوط، وكانت هناك ثقوب كثيرة في السقف، فكانت تمطر في الداخل كالخارج تماماً. شعرت الجدة أنهـا وحيدة في عالم منكوب.

قالت الجدة:

- ارفع الثمن ولو إلى ثلاثمائة.

- مائتان وخمسون.

أخيراً اتفقا على مائتي وعشرين بيـزو نقـداً، وبعـض المـواد الغذائية. عندئذ أشارت الجدة على "ايرنديرا" لكي تذهب مع الأرمـل، الذي قادها من يدها، وأخذها إلى مكان يقع خلف البقالة، كما لو كان يقودها في الطريق إلى المدرسة.

قالت الجدة:

- سأنتظرك في الخارج.

ردت "ايرنديرا":

- نعم يا جدة.

المكان خلف البقالة كان عبارة عن كوخ مسقوف، له أربع دعـــائم من الطوب، وسقف من السعف المهترئ، وجدار من الطين لا يزيـــد ارتفاعه عن متر واحد، تتسلل من خلاله رداءة الطقس، وعلى حافـــة الجدار يوجد أصص صبار؛ ونباتات أخرى جافة، كان هناك ســـرير معلق من ذلك النوع المصنوع من الحبال، الذي ينتشـــر فـــي تلـــك المنطقة، كان باهت اللون ومعلقاً بين دعامتين ترفعان السقف، كـــان السرير يتأرجح كقارب تتقاذفه الأمواج، وعلى الـــرغم مـــن صـــفير الزوابع وهدير المطر، كانت تُسمع صرخات وصياح حيوانات بعيدة، وأصوات كأصوات الغرقى.

عندما دخلت "ايرنديرا" والأرمل إلى الكوخ تشـــبث كـــل منهمـــا بالآخر حتى لا يدفنا تحت ثقل المطر المنهمر على السقف، ولم تعـــد في أصواتهما قوة تنفذ من هذا الهدير، وكانت حركتهما تعكس صوت العاصفة. في المحاولة الأولى للأرمل صرخت "ايرنديرا" في صمت مكتوم وحاولت الفرار، تجاوب معها الأرمـــل فـــي صـــمت ولـــوى ذراعها؛ وسحبها باتجاه السرير، قاومته وخمشته في وجهه وعـــادت تصرخ في صمت، لطمها بصفعة قوية، قذفت بها بعيداً عن الأرض، وجعلتها تطير في الهواء بشعرها الطويل المتمـــوج فـــي الفضـــاء، خطفها من خصرها قبل أن تلمس الأرض بقدميها، وألقى بهـــا فـــي داخل السرير بعنف، وأسكت حركتها بساقيه، فاستسلمت "ايرنـــديرا" للرعب وفقدت الوعي، سكنت مشدوهة كما لو كانت مفتونة بســـمكة تسبح في هواء العاصفة، في حين كان الأرمل يعريها ممزقاً ثيابهـــا بمخالبه، كما لو كان يقتلع بعض الحشائش، ومزق ثوبها إلى شـــرائط طويلة ملونة كثعابين تحملها الريح.

عندما لم يعد في القرية رجل يمكنه أن يـدفع ثمـن مضـاجعة "ايرنديرا" حملتها الجدة في شاحنة باتجاه مسالك التهريب، قاما بالرحلة على ظهر شاحنة مكشوفة تحمل أكياساً من الأرز وعلب الزبدة، حاملتين معهما بقايا الحريق: وسادة سرير ملكي، ملاك حرب، أريكة محترقة، وخرق لا تصلح لشيء، ووضعتا بقايا عظام "آل أماديس" في صندوق مزين بصلبان ملونة.

كانت الجدة تحتمي من الشمس بمظلة ممزقة، وتتنفس بصعوبة من عناء الغبار والعرق، لكن حتى بعد هذه النكبة كانت تحافظ على عظمتها المتسلطة، وكانت "ايرنديرا" تدفع خلف علب الزبدة أجر السفر ونقل الحاجيات، ضاجعت حمّال الشاحنة بعشرين بيزو للمرة الواحدة، في البداية استخدمت "ايرنديرا" الطريقة التي تصدت بها للأرمل، لكن معاملة الحمّال لها كانت مختلفة، فقد كان هادئاً وخبيراً، فانتهي إلى تدجينها برقة، وعندما وصلوا إلى أول قرية بعد يوم من السفر الشاق، كان الحمّال و"ايرنديرا" يتمتعان بممارسة الحب خلف حاجز البضائع، فصاح سائق السيارة في الجدة:

- من هنا تبدأ الدنيا.

نظرت الجدة إلى الشوارع القذرة والمنعزلة بريبة، فقد كانت القرية تبدو أكبر بقليل من القرية التي غادرتها، وإن كانت تبدو أكثر بؤساً.

قالت الجدة:

- لا يبدو ذلك.

قال السائق:

- هذه منطقة البعثات التبشيرية.

قالت الجدة:

- أنا لا يهمني البّر والتقوى، وإنما يهمني التهريب.

بعيداً عن الحوار تقبت "ايرنديرا" أحد أكيــاس الأرز بإصـــبعها، وفجأة لمحت خيطاً، جذبته فأخرجت عقــداً طــويلاً مــن اللآلــيء الحقيقية، تأملته في خوف، وكانت تمسك به كما لو كانت تمسك بــين أصابعها حية ميتة، وكان السائق يجيب الجدة:

- لا تحلمي أحلام اليقظة أيتها السيدة، فالمهربون لا وجود لهم.

قالت الجدة:

- ماذا؟ أتقول هذا لي أنا؟

سخر السائق بروح مرحة:

- ابحثي عنهم وسوف ترين؟ كل الدنيا تتحدث عنهم ولا يراهم أحد.

فطن الحمّال إلى أن "ايرنديرا" اكتشفت العقــد، فانـــدفع نحوهـــا، وأخذه منها، وأعاده إلى كيس الأرز، أما الجدة التي قررت البقاء في القرية برغم بؤسها الظاهر، فقد أمرت الحفيــدة أن تســاعدها فـــي الهبوط من الشاحنة، وودعت "ايرنديرا" الحمّال بقبلة سريعة، وتلقائية صادقة.

انتظرت الجدة جالسة على كرسي العرش في وسط الطريق، إلى أن انتهوا من إنزال الحمولة، وأخيرا أنزلوا الصندوق الــذي يضـــم رفات "آل أماديس".

ضحك السائق قائلاً:

- هذا الصندوق ثقيل مثل جثة متعفنة.

قالت الجدة:

- إنهما اثنان، عاملهما بالاحترام اللائق بهما.

واصل السائق ضحكته:

- أراهن على أنهما تمثالان من العاج.

وضع صندوق الرفات بين الأثاث المحترق بإهمال، ومد يده المفتوحة أمام الجدة قائلاً:

- خمسون بيزو.

أشارت الجدة إلى الحمّال قائلة:

- دفعتها لخادمك هذا.

نظر السائق إلى مساعده مذهولاً، فأشار هذا بالإيجاب. عاد السائق إلى كابينة الشاحنة، حيث كانت تنتظر امرأة مسافرة، تحتضن طفلاً كان يبكي من شدة الحرارة، قال الحمّال للجدة بثقة:

- إن لم تمانعي فإن "ايرنديرا" سوف تذهب معي، وبقصد شريف.

تدخلت الصغيرة بخوف:

- أنا لم أقل شيئاً.

قال الحمّال:

- أنا الذي قلت، إنها فكرتي أنا.

تفحصته الجدة من رأسه حتى أخمص قدميه، لا لإهانته، وإنما لتقدّر الحجم الحقيقي لجرأته، ثم قالت له:

- لا أرى مانعاً من ذلك، إذا عوضتني عما تسببته لي من خسارة نتيجة إهمالها، أي ثمانمائة واثنان وسبعون ألفاً وثلاثمائة وخمسة عشر بيزو، أنقص منها أربعمائة وعشرين بيزو التي دفعتها، هذا يعني أن تدفع لي ثمانمائة وواحداً وسبعين ألفاً وثمانمائة وخمسة وتسعين بيزو.

تحركت الشاحنة فقال الحمّال جاداً:

- تأكدي من أنني كنت سأعطيك هذا المبلغ من الفضة الخالصة لو كنت أملكه، فالصغيرة تساويه وأكثر.

ردت الجدة برقة، وقد أعجبها حديث الحمّال:

- عندما تحصل على المال، أما الآن فاذهب، لأننا لو أعدنا الحساب سوف تكون مديناً لي بعشرة بيزوات.

بدأت الجدة و"ايرنديرا" في إعداد مأوى من ألواح الزنك، وبقايا أبسطة آسيوية في المكان الواسع الذي تركتهما فيه الشاحنة، ثم وضعتا على الأرض حصيرتين، ونامتا نوماً هادئاً، كما لو كانتا في دارهما الكبيرة. إلى أن تسللت الشمس عبر السقف ولذعتهما في وجهيهما.

وخلافاً للعادة، في ذلك الصباح انشغلت الجدة بتزيين "ايرنديرا"، وصبغت وجهها بمساحيق ملونة على الطريقة القديمة، التي تعود إلى أيام شباب الجدة، فمنحتها مسحة جمالية كئيبة، وجمّلتها برموش اصطناعية؛ ومنديل من الأورجندي بدا على رأسها كالفراشة.

قالت الجدة:

- تبدين بشعة، لكن هذا المظهر طيب، فالرجال أغبياء في أمور النساء.

سمعتا خطوات بغلتين قبل أن تظهرا لناظريهما، تمددت "ايرنديرا" على الحصيرة كممثلة مسرح مبتذلة لحظة رفع الستار، أما الجدة فقد غادرت المأوى مستندة إلى عصاها، وجلست على كرسيها الملكي في انتظار مرور البغلتين.

اقترب رجل البريد، شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، وإن بدا عليه الهرم بسبب متاعب المهنة، كان يرتدي ملابس كاكية اللون، وقبعة من الفلين، ويتدلى من حزامه الجلدي مسدس عسكري، كان يمتطي بغلة مطهمة، ويمسك بزمام أخرى أكثر وداعة تحمل أكياس البريد الكتانية.

عندما مر أمام الجدة حياها بيده، وواصل طريقه، لكنها أشارت إليه أن يلقي نظرة إلى داخل المأوى، توقف الرجل وشاهد "ايريندير ا"

ممددة على الحصيرة بزينتها الكئيبة، وفستانها الموشى بألوان بنفسجية.

سألته الجدة:

- هل أعجبتك؟

حتى هذه اللحظة لم يفهم رجل البريد ما اقترحته عليه الجدة.

قال مبتسماً:

- تبدو جميلة.

قالت الجدة:

- خمسون بيزو فقط.

رد قائلاً:

- تستحقها ذهباً، لكن هذا المبلغ من المال، يساوي طعام شهر كامل.

قالت الجدة:

- لا تكن بخيلاً، مستخدمو البريد الجوي يتقاضون راتباً يفوق ما يتقاضاه القس.

قال الرجل:

- أنا من البريد الداخلي، مستخدمو البريد الجوي يتنقلون في شاحنات صغيرة.

قالت الجدة:

- على أية حال، الحب هام تماماً كالطعام.

- لكنه لا يغذي.

أدركت الجدة أن رجلاً يعيش على هبات الآخرين، يحتاج إلى مساومة طويلة.

سألته:

- كم تملك؟

ترجّل عن بغلته، وأخرج من جيبه بعض الأوراق المالية الباهتة، وقدمها للجدة التي أخذتها بيد جشعة ككرة صغيرة، ثم قالت:

– سوف أخفض لك الثمن، لكن بشرط أن تتحدث عنها في كل مكان.

قال رجل البريد:

– حتى آخر ركن في الدنيا، هذه مهنتي.

لم تجد "ايرنديرا" وقتاً لتتحرك، نزعت الأهــداب الاصــطناعية، واتخذت جانباً على الحصيرة لتفسح مكاناً لعريس الغفلــة، ومــا أن أصبح بداخل الخيمة، حتى أغلقت الجدة ستارة المدخل بحركة عنيفة.

كانت صفقة ناجحة، فعلى إثر حكايات رجل البريد، جاء الرجــال من أماكن بعيدة جداً، ليتعرفوا على السلعة الجديدة: "ايرنديرا". ومــن خلف الرجال جاءت موائد القمار والطعام، وبعد كل هذا جاء مصور فوتوغرافي بدراجته، ونصب أمام الخيمة آلة تصوير بسيقان وكم من الجوخ الأسود، ولوحة خلفية مرسوم عليها بحيــرة وإوزات باهتــة اللون.

بدت الجدة التي كانت تروّح عن نفسها، غريبة عن هذا المهرجان الذي خلقته من حولها، وما كان يستحوذ على اهتمامها هــو انتظــام طابور الزبائن، الذين كانوا ينتظرون دورهم، والتدقيق فــي المبلــغ الذي ينبغي دفعه مقدماً قبل الدخول على "ايرنديرا". كانت في البداية قاسية جداً، فطردت زبوناً جيداً كانت تنقصه خمسة بيــزوات، لكــن بمرور الزمن تعلّمت من دروس الواقع، فكانت تقبل استكمال المبلــغ بميداليات تحمل صور القديسين، والمقتنيات العائلية، وخواتم الزواج، وكل ما كان يبدو لها ذهباً رفيع المستوى رغم فقدانه البريق.

وبعد أن أمضت فترة طويلة في تلك القرية، كانت قد جمعــت فيها مالاً وفيراً يكفي لشراء حمار، توغلت في الصحراء بحثــاً عــن

أماكن أخرى ملائمة لاسترجاع الدّين، كانت تسافر على نقالة محمولة على ظهر حمار، وتحتمي من الشمس العمودية بالمظلة الممزقة التي تحملها "ايرنديرا" لتظلل لها رأسها، ويسير خلفهما أربعة من الحمّالين الهنود، حاملين حصير النوم؛ والكرسي المرمم؛ والملاك المرمري؛ وصندوق رفات "آل أماديس"، وكان يتبعهم عن بعد المصور بدراجته، كما لو كان ذاهباً إلى مهرجان آخر.

بعد مضي ستة أشهر على الحريق، كانت الجدة قد استطاعت أن تكوّن رؤية واضحة عن سير العمل.

قالت لـ "ايرنديرا":

- لو سارت الأمور على هذا النحو، فإنك سوف تسددين دينك خلال ثماني سنوات وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

أعادت الجدة حساباتها مغمضة العينين، وهي تعد حبات كانت تخرجها من كيس مثبت إلى طرف فستانها، حيث كانت تحتفظ فيه بمالها.

وأوضحت قائلة:

- بالطبع، هذا إذا لم نحسب أجر الهنود، وطعامهم، وبعض المصروفات الصغيرة الأخرى.

أما "ايرنديرا" التي كانت تسير على إيقاع حوافر الحمار، وقد أرهقها الحر والغبار، فإنها لم تبد أي تبرم من حسابات الجدة، لكنها كانت تحاول أن تتمالك نفسها حتى لا تجهش في البكاء.

قالت "ايرنديرا":

- أشعر بزجاج مسحوق في العظام.

- حاولي النوم.

- نعم يا جدة.

أغمضت "ايرنديرا" عينيها، وتنفست بعمق نفحة من الهواء الحارق، ثم واصلت سيرها نائمة.

-3-

ظهرت فجأة شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص، ففزعت الماعز في غبار الأفق، وهاجت العصافير التي بدت كتيار ماء بارد، في غفوة عيد القديس "ميجيل الصحراوي". كان يقود الشاحنة مزارع هولندي محترق البشرة من تقلبات الطقس، له شوارب سنجابية ورثها عن أجداده، وإلى جواره في المقعد الآخر كان يجلس ابنه "أوليسيس"، فتى مراهق ذهبي اللون، ذو عيون زرقاء فريدة، كان يشبه ملاكاً خفياً.

أثار اهتمام الهولندي خيمة تجمع أمامها طابور طويل من جنود الحامية المحلية، كانوا جالسين على الأرض ويشربون من قنينة واحدة يتلقفونها فيما بينهم من واحد إلى آخر، وعلى رؤوسهم أغصان شجر اللوز، كما لو كانوا يتنكرون لخوض إحدى المعارك.

سأل الهولندي بلهجته:

– أي شياطين يبيعون هناك؟

أجابه ابنه "أوليسيس" بشكل عادي:

– امرأة، أسمها "ايرنديرا".

– كيف عرفت؟

أجاب "أوليسيس":

– كل أهل الصحراء يعرفون ذلك.

نزل الهولندي في فندق صغير بالقرية، وتخلف "أوليسيس" في الشاحنة، وبخفة فتح حقيبة كبيرة كان والده قد تركها على المقعد المجاور، أخرج منها رزمة من الأوراق المالية، ووضع بعضها في

جيوبه، ثم أعاد كل شيء في مكانه كما كان من قبل. في تلك الليلة وبينما كان أبوه نائماً، قفز من نافذة الفندق وذهب ليقف في الطابور أمام خيمة "ايرنديرا".

كان الحفل في عنفوانه، المجندون السكارى يرقصون وحدهم على إيقاع الموسيقى المجانية التي تنتشر في المكان، والمصوّر يلتقط صوراً ليلية على أضواء الماغنسيوم، والجدة تحافظ على النظام وتُحصي الأوراق المالية في حجرها، توزعها إلى حزم متساوية، ثم ترتبها في إحدى السلال. لم يبق سوى اثني عشر جندياً، لكن طابور المساء طال بسبب وجود بعض المدنيين، وكان "أوليسيس" الأخير في هذا الطابور.

جاء دور جندي ذي طلعة كئيبة، فلم تكتف الجدة بقطع الطريق عليه، بل تحاشت لمس نقوده، وقالت له:

- أنت يا بني، لن تدخل عليها ولو دفعت ذهب المسلمين جميعاً، أنت مرعب.

ذُهل الجندي الذي كان غريباً عن المكان:

- ماذا تعنين؟

قالت الجدة:

- لك وجه نحس، يكفي النظر إلى وجهك.

نحّته بيدها دون أن تلمسه وسمحت للجندي التالي بالدخول وقالت له مداعبة:

- أدخل أيها الفارس، ولا تتأخر فالوطن في حاجة إليك.

دخل الجندي لكنه سرعان ما عاد إلى الخروج لأن "ايرنديرا" كانت تريد أن تتحدث إلى الجدة، علّقت الجدة سلة النقود في ذراعها، ودخلت الخيمة، كانت الخيمة ضيقة جداً لكنها مرتبة ونظيفة، في

الداخل كان هناك سرير من الكتان، كانت "ايرنديرا" ترتعش وخـــائرة القوى ومتسخة بعرق الجنود.

شهقت:

– إني أموت يا جدة.

لمست الجدة جبهتها وما أن تأكدت من خلوها من الحمى، حتـــى واستها قائلة:

– لم يبق سوى عشرة جنود.

انفجرت "ايرنديرا" بالبكاء، كانت تشهق كحيوان مرتاع، أدركـــت الجدة أنها تجاوزت حدود المعقول. داعبت رأسها لتساعدها علـــى أن تهدأ.

قالت الجدة:

– أنتِ متعبة، هيا كُفّي عن البكاء، واغتسلي بماء معطـــر لتنشّـــطي دمك.

خرجت الجدة من الخيمة فبـــدأت "ايرنـــديرا" تســـتعيد هـــدوءها، وأعادت الجدة النقود إلى الجندي الذي كان ينتظر، قالت له:

– انتهى اليوم، عد غداً وسوف تكون أول من يدخل عليها.

بعد ذلك صاحت في الباقين في الطابور:

– انتهى اليوم يا أولاد، موعدنا غداً في التاسعة.

تفرق الجنود والمدنيون وهم يهمهمون بكلمات الاحتجاج، واجهتهم الجدة بالدعابة ولكنها كانت تلوح بعصاها مهددة.

صاحت:

– أفظاظ، أجلاف، ماذا تظنون، هذه المخلوقة ليست من فولاذ، أتمنى أن أراكم في مكانها يوماً أيها الفجّار.

انصب عليها الرجال بشتائم فاحشة، لكنها استطاعت أن تسيطر على الموقف، ووقفت مستعدة بعصاها، إلى أن تأكدت من رفع طاولات المقلي، وموائد اليانصيب، وعندما كانت تستعد للعودة إلى الخيمة، شاهدت "أوليسيس" منتصباً أمامها، وحيداً بجسده الصغير، في الفضاء المظلم الواسع حيث كان صف الرجال. كانت تلفه هالة غريبة، كان يبدو واضحاً في الضباب بجماله البراق.

قالت الجدة:

- وأنت؟ أين تركت أجنحتك؟

أجاب "أوليسيس" بهدوء:

- أبي له أجنحة، ولكن الناس لا يصدقون ذلك.

تفحصته الجدة باهتمام ثم قالت:

- لكن أنا أصدق ذلك، عد غدا بجناحيك.

ثم دخلت الخيمة، وتركت "أوليسيس" يتحرق شوقاً في مكانه.

بعد الاستحمام شعرت "ايرنديرا" بالتحسن، ارتدت قميصاً داخلياً قصيراً ومطرزاً، وكانت تجفف شعرها استعداداً للنوم، وهي تحاول مقاومة البكاء، فقد كانت الجدة قد نامت. حتى شاهدت عيني "أوليسيس" المعتمتين الشفافتين تطلان من خلف سريرها، وقبل أن تنطق بشيء، فركت عينيها ووجهها بالمنشفة لتتأكد من أن ذلك لم يكن وهماً، وعندما حرك "أوليسيس" أهدابه سألته "ايرنديرا" بصوت خفيض:

- من أنت؟

برز "اوليسيس" بكتفيه وقال:

- اسمي "أوليسيس".

وقدّم لها النقود المسروقة وأضاف:

- أتيت لك بالنقود.

وضعت "ايرنديرا" يديها على السرير، وقربت وجهها من وجه "أوليسيس" ثم واصلت الحديث معه كما يفعل أطفال المدارس الإبتدائية في ألعابهم.

قالت له:

- يجب عليك أن تنتظر دورك في الطابور.

قال "أوليسيس":

- لقد انتظرت طوال السهرة.

قالت "ايرنديرا":

- عليك أن تنتظر إلى الغد، إنني أشعر بتعب شديد.

في هذه اللحظة بدأت الجدة في الكلام وهي نائمة.

قالت:

- عشرون عاماً مضت، منذ أن أمطرت السماء لآخر مرة، كانت عاصفة مرعبة، وكان المطر مخلوطاً بماء البحر، وعند بزوغ الفجر كان البيت قد امتلأ بالأسماك والمحار، وجدك "أماديس" رحمه الله، شاهد حيواناً بحرياً مضيئاً يسبح في الهواء.

أسرع "أوليسيس" بالاختفاء خلف السرير، فابتسمت "ايرنديرا" ابتسامة مرحة، وقالت له:

- اهدأ، إنها تهذي كالمجنونة عندما تكون نائمة، ولا يستطيع إيقاظها زلزال أرضي عنيف.

أطل "أوليسيس" من جديد، نظرت إليه "ايرنديرا" بابتسامة خبيثة لا تخلو من الوداعة، نزعت الغطاء القذر عن سريرها.

قالت له:

- تعال ساعدني على تغيير المفارش.

خرج "أوليسيس" من خلف السرير، وأمسك بطرف المفرش. ولأن المفرش كان أكبر حجماً من الحصيرة، فقد احتاجا إلى وقت كبير لطيه عدة مرات، وفي كل مرة كان "أوليسيس" يقترب فيها من "ايرنديرا".

فجأة قال:

- كنت سأجن من أجل رؤيتك، الناس يقولون إنك جميلة جداً، وهذا حقيقي.

قالت "ايرنديرا":

- لكنني سأموت.

قال "اوليسيس":

- أمي تقول إن الذين يموتون في الصحراء، لا يذهبون إلى السماء ولكن يذهبون إلى البحر.

وضعت "ايرنديرا" المفرش القذر جانباً، وفرشت على الحصير مفرشاً آخر نظيفاً ومكوياً.

ثم قالت:

- لا أعرف ما هو البحر.

قال "أوليسيس":

- إنه كالصحراء، ولكنه مليء بالماء.

- إذن لا يمكن السير عليه.

قال "أوليسيس":

- أبي كان يعرف رجلاً يمكنه ذلك، لكن هذا حدث منذ زمن بعيد.

كانت "ايرنديرا" سعيدة، ولكن لديها رغبة قوية في النوم.

فقالت:

- لو أتيت مبكراً سوف تكون في أول الطابور.

قال "أوليسيس":

- سوف أذهب مع أبي في الفجر.

- ألن تمرا من هنا مرة أخرى؟

قال "أوليسيس":

- يعلم الله متى يكون ذلك، لقد كان مرورنا من هنا صدفة، لأننا فقدنا الطريق إلى الحدود.

نظرت "ايرنديرا" إلى الجدة النائمة وهي شاردة الذهن، وقررت:

- حسناً هات النقود.

سلمها "أوليسيس" ما معه، وتمددت "ايرنديرا" في السرير، لكن الفتى بقي في مكانه مرتجفاً، وفي اللحظة الحاسمة تراخى، أمسكته "ايرنديرا" من يده لتحمسه، فاكتشفت عندئذ المحنة التي يمر بها، فقد عرفت هي هذا الخوف من قبل.

سألته:

- هذه أول مرة؟

لم يجب، لكنه ابتسم في حزن، غيّرت "ايرنديرا" الحديث، وقالت:

- تنفس بهدوء، فالبداية تكون هكذا دائماً، لكن الأمر سهل بعد ذلك.

أرقدته إلى جانبها بينما كانت تُعري ثيابه، وتشجعه بأمومة.

قالت:

- ماذا قلت اسمك؟

- "أوليسيس".

قالت "ايرنديرا":

- إنه اسم إغريقي.

- لا، إنه اسم بحّار.

عرّت "ايرنديرا" صدره، ثم قبلته قبلات سريعة، وتشممته بلذة.

قالت:
- تبدو كما لو كنت من ذهب، لكن لك رائحة الزهور.
قال "أوليسيس":
- إنها زهور البرتقال.
ابتسم ابتسامة هادئة ومتواطئة ثم أضاف:
- نحمل معنا طيوراً كثيرة حتى لا يتم اكتشاف أمرنا، لكن الحقيقة إننا نشحن برتقالاً لنهربه.
قالت "ايرنديرا":
- البرتقال ليس سلعة للتهريب.
قال "أوليسيس":
- برتقالنا سلعة للتهريب، فكل واحدة منها تساوي خمسين ألف بيزو.
ضحكت "ايرنديرا" لأول مرة منذ زمن طويل، وقالت:
- ما يعجبني فيك، هذه الجدية التي تخترع بها أكاذيبك.

تحولت "ايرنديرا" إلى تلقائية وثرثارة، كما لو كانت براءة "أوليسيس" قد غيّرت من طباعها، كانت الجدة النائمة على بعد خطوات تواصل هذيانها قائلة:
- في ذلك الزمن، كنا في بداية شهر مارس، جاءوا بك إلى البيت، كنت تبدين كسحلية ملفوفة بالقطن، و"أماديس"، أبوك، كان شاباً وسيماً، كان مرحاً في ذلك المساء، فأوصى بعشرين عربة من الزهور، وأخذ يصيح ويلقي بالزهور في الشارع، حتى صارت القرية ذهبية كالبحر.

ظلت الجدة تهذي بصوت عال لساعات طويلة، وكانت شهوتها للكلام عنيدة، لكن "أوليسيس" لم يكن يسمعها، لأن "ايرنديرا" أغرمت به جداً، و بإخلاص حقيقي، حتى أنها ضاجعته بنصف الثمن، وبينما كانت الجدة تهذي واصلت "ايرنديرا" ممارسة الحب معه مجاناً حتى بزوغ الفجر.

-4-

وقف فريق من المبشرين في وسط الصحراء كتفاً إلى كتف، وهم يحملون الصلبان، وكانت الريح عنيفة تكاد تمزق بناطيلهم ولحاهم الشعثاء، وكانت بناية البعثة التبشيرية من خلفهم، وهي عبارة عن مبنى من العهد الاستعماري، له برج ونواقيس صغيرة، تعلو الحوائط الخشبية الخشنة المطلية بالجير، أشار أصغر المبشرين سناً ذلك الذي كان يقود الفريق إلى شق طبيعي في الأرض الطينية اللامعة وصاح:

- لا تتجاوزوا هذا الخط.

عندما سمعوا الصيحة، توقف الحمّالون الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على المحفة، لم تكن الجدة مسترخية على محفتها، فقد كانت مخدرة بالعرق؛ وغبار الصحراء، لكنها كانت تحتفظ بهيبتها، وكانت "ايرنديرا" تسير على قدميها خلف المحفة، ويتبعها طابور من ثمانية حمّالين هنود محملين بباقي العتاد، وفي آخر الطابور كان المصور على دراجته.

قالت الجدة:

- الصحراء ليست ملكاً لأحد.

قال المبشر:

- إنها ملك الله، وأنتم تنتهكون تعاليمه المقدسة، بتجارتكم الدنسة.

تعرّفت الجدة على لهجته الإسبانية من طريقة النطق، فتجنبت الصدام معه، لم تكن ترغب في إزعاج نفسها بتصلبه، فتمالكت نفسها.

قالت:

- أنا لا أفهم ألغازك.

أشار المبشر إلى "ايرنديرا" قائلاً:

- هذه المخلوقة قاصر.

- لكنها حفيدتي.

أجابها المبشر:

- هذا أسوأ، اتركيها في رعايتنا عن طيب خاطر، وإلا لجأنا إلى وسائل أخرى.

لم تكن الجدة تتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد، فتراجعت في خوف:

- حسناً أيها الوغد، ولكن سأعود عاجلاً أم آجلاً... سوف ترى.

بعد ثلاثة أيام من لقاء الجدة بالمبشرين، كانت تنام مع "ايرنديرا" في قرية قريبة من الدير، تسللت إلى الخيمة أشباح حذرة وصامتة، كن ست راهبات هنديات، شابات وقويات، يلبسن ثياباً من الكتان الخام الذي بدا فوسفورياً تحت ضوء القمر، وفي صمت غطين "ايرنديرا" بقماش رفيق، ورفعنها دون أن يوقظنها، وحملنها ملفوفة كسمكة كبيرة وطرية تم أسرها في شبكة من أشعة القمر.

لم تجد الجدة طريقة لإخراج حفيدتها من تحت وصاية المبشرين، وعندما تبينت فشل مساعيها وتحيلاتها لجأت إلى السلطات المدنية، التي كان يمثلها رجل عسكري، عثرت عليه في فناء منزله عاري الصدر، ويطلق النار من بندقية حربية باتجاه سحابة داكنة؛ ووحيدة تمر في السماء الحارقة، حيث كان يحاول ثقب السحابة لتُسقط مطراً، لكن جهوده ذهبت هباء، يتوقف عن إطلاق النار من حين لآخر ليستمع إلى الجدة، وبعد أن استمع إليها، قال لها شارحاً الأمر:

- أنا لا أستطيع فعل أي شيء، فطبقا للمعاهدة البابوية، فإن المبشرين لهم الحق في رعاية القاصر حتى تبلغ سن الرشد أو تتزوج.

سألت الجدة:

- ما الفائدة إذن من وجود حاكم للمدينة.

قال الحاكم:

- لإسقاط المطر من السماء.

عندما تيقن الحاكم من ابتعاد السحابة عن مرمى بندقيته، انقطع عن أداء واجبه الرسمي وتفرغ للاستماع إلى الجدة.

قال لها:

- ما أنتِ في حاجة إليه، هو شخص ذو نفوذ كبير، يوقع على كتاب يؤكد فيه حسن سيرك وسلوكك، وأخلاقك الفاضلة، ألا تعرفين السناتور "اونسيمو سانشيث"؟

جلست الجدة على كرسي بزوايا حادة تحت الشمس الحارقة وأجابته بحنق:

- أنا امرأة مسكينة ووحيدة في وسط هذه الصحراء الواسعة.

نظر إليها الحاكم بعطف، وهو يرمش بعينه اليمنى من شدة الحرارة، وقال:

- أيتها السيدة لا فائدة من تضييع الوقت.

لم تتحرك الجدة من مكانها، ونصبت خيمتها أمام دير المبشرين، وجلست تفكر كمحارب وحيد يحاصر مدينة محصنة. كان المصوّر المتجول يعرفها جيداً، لذلك شحن حاجياته على الدراجة واستعد للرحيل، لمحته الجدة في وضوح الشمس، وقالت له وعيناها مشدودتان إلى الدير:

- سوف نرى من الذي يمل أولاً... هم أم أنا.

قال المصوّر:

- إنهم هنا منذ ثلاثة قرون ولم يملوا، أنا راحل.

عندما شاهدت الجدة الدراجة محملة قالت:
- إلى أين؟
- إلى حيث تحملني الريح، أرض الله واسعة.
قالها ورحل.
- الأمر ليس على ما تتصور أيها العاق.

رغم الحقد لم تحرك الجدة رأسها، حتى لا تحول عينيها عن الدير، فقد ثبتت عينيها على الدير أياماً وليالي، رغم الحرارة الشديدة، والرياح القوية الشاردة، حتى في فترات التعبد التي لا يخرج فيها أحد من الدير، أما الهنود، فقد أقاموا كوخاً من سعف النخيل، وأقاموا فيه أسرّتهم المعلقة الصغيرة، ونشروا خرقهم الملونة. أما الجدة فقد كانت تسهر طوال الليل جالسة على كرسيها الملكي، تهز رأسها، وهي تجتر حبات الشعير الجافة كثور نائم.

ذات ليلة، شاهدت الجدة قافلة من الشاحنات، تمر ببطء بالقرب منها، وكانت أضواء الشاحنات الملونة الصغيرة هي الوحيدة المضاءة، فبدت الشاحنات كهياكل نائمة، تعرّفت الجدة عليها، لأنها كانت تشبه شاحنات "آل أماديس"، تأخرت الشاحنة الأخيرة عن القافلة، ثم توقفت، وهبط منها رجل لإصلاح بعض الأشياء على سطحها، كان يحمل قبعة عريضة، وحذاءً كبيراً، وعلى صدره حزامان متقاطعان من خراطيش الرصاص، ويحمل بندقية عسكرية ومسدسين، كان يشبه "آل أماديس". لم تستطع الجدة مقاومة الرغبة في الحديث إليه، سألته:
- هل تعرف من أكون؟

سلط الرجل عليها ضوء مصباحه الجيبي بعنف، تأمل للحظات ذلك الوجه الذي أنهكه السهاد، والعينين المتعبتين والشعر المجعد، ورغم شيخوختها؛ وسوء حالها، بدت له في هذا الضوء الساطع، أنها

كانت أجمل امرأة في الدنيا، تفحصها جيداً ليتأكد من أنه لم يشاهدها من قبل، أطفأ مصباحه الصغير، وقال:

- الشيء الوحيد الذي أعرفه بكل تأكيد، أنك لست السيدة مريم العذراء.

قالت الجدة بصوت فيه حلاوة:

- على العكس تماماً، فأنا السيدة.

تحسس الرجل مسدسه بحركة غريزية:

- أية سيدة.

- زوجة "أماديس" الكبير.

قال الرجل منزعجاً:

- إذن أنتِ لست من هذه الدنيا، ماذا تريدين؟

- أن تساعدوني على إنقاذ حفيدتي، حفيدة "أماديس" الكبير، ابنة ابننا "أماديس" المسجونة في هذا الدير.

سيطر الرعب على الرجل، فقال:

- لقد أخطأت الطريق، إذا كنتِ تعتقدين إننا قادرون على التدخل في شئون الله، أنتِ لستِ من تزعمين، بل أنتِ لم تعرفي "آل أماديس"، وليست لديكِ أدنى فكرة عما يعنيه التهريب.

نامت الجدة في ذلك الصباح أقل مما كانت تنام في الأيام السابقة، حيث قضت الليل تجتر، كانت ملتفة في بطانية صوفية، فيما كانت الذاكرة تختلط بزمن الليل، كانت العذابات تتدفق رغم يقظتها، فكان عليها أن تضغط على قلبها، حتى لا تخنقها ذكرى المنزل البحري بزهوره الكبيرة الملونة، الذي كانت تعيش فيه سعيدة. ظلت على هذا الحال إلى أن دق ناقوس الدير وأضيئت النوافذ، وصار الهواء مشبعاً

برائحة خبز الصلوات الساخن، عندئذ غادرها التعب حالمة بأن تكون "ايرنديرا" قد استيقظت، وتبحث عن طريقة للفرار، والعودة إليها.

أما "ايرنديرا" فإنها منذ أن حملوها إلى الدير لم تعرف السهاد ليلة واحدة، فقد قصّوا شعرها بمقص وتركوا رأسها كفرشاة، وألبسوها ثوباً كتانياً خشناً، وأعطوها دلواً وفرشاة لتبييض درجات السلم كلما ارتقاها أحد، كان عملاً قاسياً، لأن تنقلات المبشرين، بأحذيتهم الملونة، والمترهبنات المنهكات، لم تكن تنقطع، رغم ذلك فقد بدا لها ذلك وكأنه يوم إجازة من العمل بعد تلك الأيام الطويلة التي قضتها في سرير الحب القاتل، إضافة إلى أنها لم تكن الوحيدة التي تشعر بالإرهاق حين يحل المساء، فقد كان هذا الدير يكرّس نشاطه لمكافحة الشياطين، بل ولمقاومة الصحراء، فقد شاهدت المترهبنات يروضن الأبقار ليحلبنها في الإسطبلات، ويتقافزن أياماً كاملة على الألواح الخشبية، ويعصرن الأجبان، ويساعدن الماعز على الولادة. شاهدتهن يستخرجن الماء من البئر، وأجسادهن تنضح عرقاً كالحمّالين، فيما مترهبنات أخريات تعزقن الأرض لزراعة البقول في صوان الصحراء، رأت "ايرنديرا" الجحيم الأرضي في أفران الخبز، وحجرات كي الملابس، وتابعت راهبة تطارد خنزيراً في الفناء وتنزلق معه إلى الوحل، وهي ممسكة بأذنيه دون أن تتركه، في انتظار أن تأتي مترهبنات مرتديات مرايل جلدية، ليساعدنها في السيطرة على الخنزير، وتذبحه إحداهن بسكين جزار فيتلوثن جميعاً بالدّم والوحل. وشاهدت في جناح المستشفى المنعزل، الراهبات المصابات بداء الصدر وهن يرتدين أردية الموت في انتظار خروج السر الإلهي، ومترهبنات غيرهن في الشرفات يطرزن أغطية فراش الزوجية. بينما رجال البعثة التبشيرية يغوصون في الصحراء، كل

هذا و"ايرنديرا" تعيش في الظل، تكتشف أشكالاً للجمال والرعب، لم تكن تتصور وجودها في دنيا السرير الضيق، لكن لا المترهبنات المتوحشات، ولا الوديعات المُقنّعات، استطعن انتزاع كلمة واحدة من "ايرنديرا" منذ أن حملنها إلى الدير.

في ذات صباح كانت تمزج فيه الجير بالدلو سمعت "ايرنديرا" موسيقى تصدر عن آلة وترية، فكانت تلك الموسيقى كشعاع ضوء شفاف في عتمة الصحراء، بهرها الشعاع المعجزة، فصعدت باتجاه صالون كبير بلا أثاث وعاري الجدران، له نوافذ كبيرة، حيث واجهها فجأة نور شهر يونيو الباهر، وشاهدت في وسط الصالون راهبة فاتنة، لم تكن قد رأتها من قبل، كانت تعزف على قيثارة نشيداً دينياً. استمعت "ايرنديرا" إلى الموسيقى دون أن يرف لها جفن، وقد شعرت بتوازن روحي، إلى أن دق ناقوس الطعام، بعد تناول الغداء كانت تقوم بتبييض درجات السلم بالفرشاة، فانتظرت إلى أن توقفت حركة صعود وهبوط المترهبنات، وبقيت وحيدة، حيث لا يستطيع أحد أن يسمعها، فتكلمت لأول مرة منذ دخولها الدير.

قالت:

- كم أنا سعيدة.

شعرت الجدة أن أملها في هروب "ايرنديرا" قد تلاشى، رغم حصارها المميت للدير الذي استمر على حاله، فقررت الانتظار حتى عيد الخمسين، وهو الوقت الذي كان يغوص فيه المبشرون في الصحراء بحثاً عن العشيقات ليزوجوهن، فكانوا يذهبون إلى القرى النائية في شاحنة صغيرة وعتيقة، وبصحبتهم أربعة من الجنود المسلحين تسليحاً جيداً، وصندوقاً مليئاً بالسلع الرخيصة. أصعب الأشياء في هذه المهمة هو إقناع النساء، اللاتي كن يدافعن عن فضل

الله عليهن بوجودهن في حماية عشيق، ويتعللن بأن للرجال حقاً شرعياً في الجلوس والتمتع بالراحة في الأسرة المعلقة، ومطالبة زوجاتهم بالعمل الشاق، لذلك كان ينبغي إغواء الهنديات من خلال مزج المبشرين بين الإرادة الإلهية ولغة الهنود أنفسهم، حتى لا ينفرن من الدعوة إلى الفضيلة. لكن أكثر النساء عناداً كن يقتنعن في النهاية مقابل بعض الأساور النحاسية الصفراء، أما الرجال فالأمر يختلف معهم، فقد كان يتم إخراجهم من الأراجيح المعلقة بضربهم بأعقاب البنادق، وربطهم في الشاحنة، وتزويجهم بالقوة.

كانت الجدة تشاهد خلال أيام عديدة، كيف أن الشاحنة كانت تعود إلى الدير مليئة بالهنديات الحوامل، لكنها لم تفهم السبب الذي يجعل القسس والمبشرين يقومون بهذا العمل، إلا إنها عرفت يوم الأحد الموافق يوم عيد الخمسين، عندما سمعت ضجيج المفرقعات؛ وأصوات النواقيس، وشاهدت الحشود البائسة من الهنديات الذاهبات إلى العيد في فرح، شاهدت في هذا الحشد نساء حوامل، يرتدين أثواب وتيجان العرائس، متعلقات بأزواج، جمعتهن بهم المصادفة، فيتحولن إلى زوجات شرعيات في هذا العرس الجماعي.

في آخر الحشد مر صبي مراهق بشعره الهندي المقصوص بشكل طوطمي، كان رث الثياب، ويحمل شمعة عيد بشريط حريري، نادته الجدة سألته بصوت قوي:

- قل لي يا بني، ماذا تفعل في هذا العيد؟

خجل الفتى وهو يحمل شمعته، كان يجد صعوبة في إغلاق فمه، بسبب أسنانه الحميرية الكبيرة.

قال:

- سوف يناولني القس قرباناً مقدساً.

- كم دفعوا لك؟
- خمس بيزوات.

أخرجت الجدة من حافظتها، حزمة من الأوراق النقدية، نظر الصبي إليها بذهول.

قالت الجدة:

- سوف أعطيك عشرين منها، لكن ليس لتناول القربان، بل للزواج.
- أتزوج من؟
- حفيدتي.

تزوجت "ايرنديرا" في ساحة الدير، دون أن تعرف اسم العريس الذي اشترته لها الجدة. كانت ترتدي زي راهبة، وخماراً أهدته لها المترهبنات. ثم استسلمت لألم ساقيها الغامض على الأرض المغطاة بملح البارود ورائحة مائتي امرأة حامل، هؤلاء اللواتي تزوجن في ذلك العرس الجماعي. وتمت قراءة نصوص إنجيل القديس "بولس" المقدسة، باللغة اللاتينية الرديئة، تحت حرارة الشمس العمودية. وذلك لأن المبشرين لم يجدوا وسيلة للاعتراض على الزواج الصوري. لكنهم وعدوا "ايرنديرا" بأنهم سوف يحاولون محاولة أخيرة لكي تبقى في الدير. ومع ذلك، وبعد نهاية الاحتفال الذي تم بحضور المندوب البابوي، والحاكم العسكري الذي كان يطلق النار على السحب لإسقاط المطر، والزوج الجديد والجدة الهادئة، وجدت "ايرنديرا" نفسها خاضعة من جديد للسحر الذي سيطر عليها منذ ولادتها، وعندما سألوها عن رغبتها الحرة والنهائية، تنهدت مترددة، وقالت:

- أريد أن أذهب.

أوضحت مشيرة إلى الزوج.

- لكني لن أذهب معه بل مع جدتي.

-5-

أمضى "أوليسيس" الليلة وهو يحاول سرقة برتقالة من مزرعة أبيه، ولكن الأب لم يرفع عينيه عنه، حين كانا يشذبان الأشجار المريضة، وكانت أمه تراقبه من البيت. فتخلى عن مشروعه في ذلك اليوم على الأقل، وواصل بغيظ مساعدة أبيه في تقليم أشجار البرتقال الأخيرة.

كانت المزرعة هادئة ومموهة لتكون خافية عن الأنظار، والمنزل الخشبي له سقف من الزنك، ونوافذه بقضبان من النحاس، وشرفة كبيرة مقامة على أعمدة، تتسلقها نباتات بدائية ذات زهور كثيفة، كانت أم "أوليسيس" مسترخية في الشرفة على أريكة نمساوية، وتضع على صدغيها أوراقاً مدخنة لتخفف من صداعها. كانت تتابع تحركات ابنها بنظرة هندية صافية، وعيناها تشعان حزمة من ضوء خفي، تابعته إلى أكثر الأماكن بعداً في المزرعة. كانت الأم جميلة جداً، وأكثر شباباً من زوجها، ولا تزال تحافظ على لباس القبيلة، وتعرف الأسرار القديمة؛ والسرية لسلالتها.

عندما عاد "أوليسيس" بأدوات التشذيب، طلبت منه أمه أن يحضر لها دواء الصداع، الذي تتعاطاه في الرابعة مساء، كان الدواء على طاولة صغيرة بالقرب منها، عندما لمس "أوليسيس" الكأس والقنينة تغير لونهما، وعندما لمس بخبث الدورق وبعض الكؤوس التي كانت على المائدة، تحولت جميعاً إلى اللون الأزرق، كانت الأم تراقبه

وهي تتناول الدواء، وعندما تأكدت من أن ذلك لم يكن هذياناً بسبب الصداع، سألته بلهجة الفلاحات الكوبيات:

- منذ متى يحدث لك هذا؟

أجابها "أوليسيس" بنفس اللهجة:

- منذ أن عدنا من الصحراء، لكن هذا يحدث مع الأشياء الزجاجية فقط.

وليبرهن لها على ذلك، لمس الكؤوس التي كانت على المائدة واحداً بعد الآخر فتغيرت جميعها إلى ألوان مختلفة.

قالت الأم:

- هذه الأشياء تحدث بسبب الحب فقط، تُرى من تكون الفتاة؟

لم يجب "أوليسيس"، في هذه اللحظة مر الأب الذي لم يكن يفهم اللهجة الكوبية وكان يحمل بعض البرتقال، سأل "اوليسيس" باللغة الهولندية:

- عمَّ تتحدثان؟

أجاب "اوليسيس":

- لا شيء محدد.

لم تكن أم "أوليسيس" تفهم اللغة الهولندية، وعندما دخل زوجها إلى البيت سألت ابنها بلغتها:

- ماذا قال لك؟

قال "أوليسيس":

- لا شيء.

اختفى الأب عندما دخل البيت، لكن "أوليسيس" شاهده من جديد عبر إحدى نوافذ المكتب، انتظرت الأم إلى أن انفردت بابنها، وألحت عليه بالسؤال:

- قل لي من هي؟

قال "أوليسيس":

- ليست هناك أية فتاة؟

أجابها بلا اهتمام، لأنه كان يتابع تحركات أبيه في المكتب، شاهده يضع البرتقالات على الخزانة، ليطبع عليها الرمز السري، وفي نفس الوقت كانت الأم ترقب "أوليسيس".

قالت:

- لم تتذوق الخبز منذ فترة طويلة؟
- لا أحبه.

لمع وجه الأم بحيوية فجائية، غير مألوفة. وقالت:

- أنت تكذب، لم تأكله لأنك مريض بداء الحب، والذين هم مثلك لا يأكلون الخبز.

كان واضحاً من صوتها؛ وعينيها أنها انتقلت من الترغيب إلى الترهيب.

قالت:

- من الأفضل أن تقول لي من تكون تلك الفتاة؟ وإلا سأجبرك على حمامات التطهير.

في المكتب فتح الهولندي صندوقاً، ووضع فيه البرتقالات التي كان يحملها ثم أغلق الباب الحديدي، ابتعد "أوليسيس" عن النافذة وأجاب على سؤال أمه بصبر نافد:

- قلت لك ليست هناك أية فتاة. وإذا لم تصدقيني فاسألي أبي.

ظهر الهولندي في مدخل باب المكتب، وهو يشعل غليونه البحري، ويتأبط الكتاب المقدس، سألته زوجته باللغة الإسبانية:

- على من تعرفتم في الصحراء؟

أجابها الزوج، وهو ينظر باتجاه السحب:

- لا أحد، وإذا لم تصدقيني فاسألي "أوليسيس".

ثم جلس في آخر الممر، وظل يدخن غليونه إلى أن نفد التبغ، ثم فتح الكتاب المقدس، وتلا منه بعض المقاطع لمدة ساعتين تقريباً، كان يتلوها بلغة هولندية صاخبة وغامضة.

ظل "أوليسيس" يفكر حتى انتصف الليل، لم يستطع النوم، ظل يتقلب في سريره، محاولاً السيطرة على ألم الذكريات، إلا أنه وجد في الألم القوة التي كان يفتقدها، ليتخذ قراره الأخير، ارتدى بنطلونه الجينز الأمريكي، وقميصه الملون بمربعات اسكوتلاندية وحذاء الركوب، ثم قفز من النافذة، وهرب من المنزل في الشاحنة المحملة بالطيور، وعندما مرّ بالمزرعة، التقط البرتقالات الثلاث الناضجة التي لم يستطع سرقتها طوال فترة الظهيرة.

سافر في الصحراء طوال الليل، وعندما بزغ الفجر، بدأ يسأل في القرى والمخيمات عن مكان "ايرنديرا"، لم يرشده أحد إلى الطريق، وفي النهاية أخبروه بأنها ترافق الموكب الانتخابي للسناتور "أونسيمو سانشيث"، الذي قد يكون في طريقه إلى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يعثر عليها في ذلك المكان، لكنه وجدها في القرية التالية لأن "ايرنديرا" تركت موكب السناتور، بعد أن حصلت الجدة على خطاب يضمن فيه السناتور أخلاقها الحسنة، وبفضل هذه الرسالة، انفتحت أشد أبواب الصحراء انغلاقاً. في اليوم الثالث التقى "أوليسيس" برجل البريد الذي أرشده عن الاتجاه الذي يريده.

قال له:

- إنهم ذاهبون باتجاه البحر، أسرع، لأن العاهرة العجوز تريد أن تبحر بها إلى جزيرة أوروبا.

بعد نصف يوم من السير في هذا الاتجاه، لمح "أوليسيس" الخيمة القذرة التي اشترتها الجدة من سيرك مُفلس، وكان المصوّر قد عاد

معها بعد أن اكتشف أن الدنيا لم تكن واسعة كما كان يعتقد، فنصب صوره الرومانسية بالقرب من الخيمة، وكانت هناك فرقة موسيقى نحاسية، تعزف نغمات فالس حزين لزبائن "ايرنديرا".

انتظر "أوليسيس" دوره للدخول، وأول ما لفت نظره داخل الخيمة النظام والنظافة، وبعد أن استعاد كرسي الجدة العظمة التي تليق به، وكان تمثال الملاك في مكانه بجوار الصندوق الجنائزي لرفات "آل أماديس"، إضافة إلى مغطس من الزنك يعتمد على أقدام لها شكل أقدام الأسود، وكانت "ايرنديرا" ممددة على سريرها الجديد ذي القبة، كانت عارية وساكنة، يشع منها ضوء طفولي ينبعث تحت ظلال الخيمة الخفيفة. كانت نائمة بعيون مفتوحة، وقف "أوليسيس" إلى جوارها وفي يديه البرتقالات الثلاث.

كان متأكداً من أنها كانت تنظر إليه دون أن تراه، مرر كفه أمام عينيها، ثم ناداها بالاسم الذي تخيله لها ليذكرها به.

- "آرنديري".

أفاقت "ايرنديرا" وفطنت إلى أنها كانت عارية أمام "أوليسيس"، وصدرت عنها صرخة مكتومة، ثم تدثرت بالغطاء حتى رأسها. قالت:

- لا تنظر إليّ، فأنا أبدو بشعة.

قال "أوليسيس":

- لك لون البرتقال.

وضع الثمرات أمام عينيها كي تقارن بنفسها، وقال:

- انظري.

كشفت "ايرنديرا" عن عينيها وتبينت أن لون البرتقال كان يشبهها فعلاً.

قالت:

- لا أريدك أن تبقى هنا.

قال "أوليسيس":

- عدت فقط لأقدم لكِ هذا، أنظري.

قشّر برتقالة بأظافره وقسّمها إلى نصفين، فرأت "ايرنديرا" ما بداخلها، في قلب الثمرة كانت هناك ماسة حقيقية.

قال:

- هذا هو البرتقال الذي نحمله إلى الحدود.

صاحت "ايرنديرا":

- لكنه برتقال طبيعي.

ابتسم "أوليسيس":

- طبعاً، يزرعه أبي.

لم تستطع "ايرنديرا" أن تصدق ذلك، كشفت وجهها، وأمسكت بالماسة بين أصابعها وتأملتها بانبهار.

قال "أوليسيس":

- بثمن ثلاث من هذه، نطوف العالم.

أعادت "ايرنديرا" الماسة بتخاذل، فألحّ "أوليسيس" قائلاً:

- لدي شاحنة صغيرة... وأيضاً... أنظري.

أخرج من تحت قميصه مسدساً قديماً.

قالت "ايرنديرا":

- لا أستطيع أن أرحل قبل عشر سنوات.

قال "أوليسيس":

- سوف تذهبين هذه الليلة، وسوف أنتظرك هناك في الخارج وعندما تنام الجدة البيضاء، سأقلد صوت البومة، وأُصدرُ صوتاً مثل نعيق البوم تماماً، لمعت عينا "ايرنديرا" لأول مرة.

قالت:

- إنها الجدة.
- البومة.
- الحوت.

ضحكا معاً لاختلاط الكلمات، لكن "ايرنديرا" سرعان ما استعادت طبيعتها.

- لا يستطيع أي إنسان أن يرحل إلى أي مكان في الدنيا دون إذن من جدته.
- لا يجب أن تقولي لها شيئاً.

قالت "ايرنديرا":

- على أية حال ستعرف. إنها تحلم بالأشياء.

قال "أوليسيس":

- عندما تحلم برحيلك، سوف نكون في الجانب الآخر من الحدود، سوف نعبرها كالمهربين.

قبض "أوليسيس" على مسدسه برزانة البطل السينمائي، وقلد صوت الطلقات النارية ليثير "ايرنديرا" بجرأته، هي لم تقل نعم أو لا، ولكنها تأوهت وودعت "أوليسيس" بقبلة سريعة، فهمس "أوليسيس" بثبات:

- غداً سوف نشاهد السفن.

بعد الساعة السابعة بقليل من تلك الليلة، عادت ريح التعاسة تهب من جديد، ففي حين كانت "ايرنديرا" تمشط الجدة، وعلى مدخل الخيمة، كان الحمّالون الهنود، ومدير الجوقة، ينتظرون دفع رواتبهم، وبعد أن انتهت الجدة من إحصاء الأوراق النقدية، التي كانت في صندوق قريب من متناول يدها، وبعد أن نظرت في دفتر الحسابات، دفعت لأكبر الهنود سناً.

وقالت له:

- خذ، الأجر عشرون بيزو لهذا الأسبوع، وبعد الخصم يتبقى لك ثمانية بيزوات وخمسون سنتاً. عدها جيداً.

أحصى الهندي العجوز النقود، وانسحب مع رجاله باحترام كبير:

- شكراً أيتها السيدة البيضاء.

جاء من بعدهم مدير الجوقة الموسيقية، فنظرت الجدة إلى دفتر الحسابات، ثم وجهت كلامها إلى المصوِّر الذي كان يحاول إصلاح منفاخ آلته بقطع خشبية.

قالت له:

- على أي شيء اتفقنا... هل تدفع الربع للموسيقى أم لا؟

لم يرفع المصوّر رأسه ليجيب:

- الموسيقى لا تظهر في الصور.

ردت الجدة:

- لكنها تحبب الناس في التقاط صورهم.

قال المصوّر:

- على العكس إنها تذكرهم بالموتى، فتبدو أعينهم مغمضة في الصور.

تدخل مدير الجوقة قائلاً:

- ما يُغمض أعينهم ليست الموسيقى، بل أضواؤك الليلية.

و أصر المصوِّر:

- بل الموسيقى.

وضعت الجدة حداً للمشكلة قائلة:

- لا تكن بخيلاً، أنظر إلى نجاح السناتور "أونسيمو سانشيث"، لقد كان ذلك بفضل الموسيقى التي ترافقه.

ثم ختمت حديثها بلهجة حازمة:

- باختصار، إما أن تتحمل نصيبك، أو تواجه مصيرك وحدك، ليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة المسكينة كل المصروفات وحدها.

قال المصوِّر:

- سوف أواجه مصيري وحدي، أنا فنان.

هزت العجوز كتفيها، وانشغلت بالموسيقي. قدمت له حزمة من الأوراق النقدية طبقاً للرقم المكتوب في الدفتر وقالت له:

- مائتان وأربعة وخمسون من فئة الخمسين سنتا، واثنان وثلاثون من فئة الستين سنتا، ذلك لأيام الأحد والأعياد، المجموع مائة بيزو وعشرون سنتا.

رفض الموسيقي قبول المبلغ، وقال:

- بل مائة واثنان وثمانون بيزو وأربعون سنتاً، لأن الفالس مرتفع الثمن.

- لماذا؟

قال الموسيقي:

- لأنها أكثر حزناَ.

أجبرته الجدة على قبول النقود قائلة:

- اعزف لنا هذا الأسبوع لحنين حزينين مقابل كل فالس، وبهذا نكون خالصين.

لم يفهم الموسيقي منطق الجدة، لكنه قبل النقود وحسم الخلاف. في تلك اللحظة كادت الريح المجنونة أن تقتلع الخيمة، وفي الصمت الذي خلفته الريح كان نعيق البوم يبدو واضحاً ومفجعاً.

لم تعرف "ايرنديرا" كيف تخفي ارتباكها، أغلقت الصندوق وأخفته تحت السرير، لكن الجدة شعرت برعشة في يدها، وهي تعطيها المفتاح.

قالت لها:

- لا تخافي، البوم يأتي دائماً في ليالي الرياح الشديدة.

لكنها سرعان ما غيرّت رأيها عندما شاهدت المصوِّر يحمل آلته ويرحل، فقالت الجدة:

- انتظر إلى الغد إذا أردت، فالموت يتجول في الدنيا بحرية في هذه الليلة.

كان المصوِّر قد سمع نعيق البومة، لكنه لم يغيّر رأيه، ألحت الجدة عليه قائلة:

- ابق يا بني... أنت لا تعرف مدى اعتزازي بك.

قال المصوِّر:

- لكني لن أدفع نصيبي من أجر الموسيقى.

قالت الجدة:

- آه... لا .. هذا لن يكون.

قال المصوِّر:

- هل رأيتِ ... أنت لا تحبين أحداً.

شحُب وجه الجدة حنقاً:

- إذن اذهب أيها اللقيط.

شعرت الجدة بأنها أُهينت، فظل الحقد يغلي في صدرها، فيما كانت "ايرنديرا" تساعدها على النوم.

همهمت الجدة:

- ابن العاهرة، ماذا يعرف هذا اللقيط عن قلوب الآخرين.

لم تعرها "ايرنديرا" أي انتباه، لأن البومة كانت تُلح عليها كلما هدأ صوت الريح، وكان التردد يعذبها. دخلت الجدة فراشها، حسب التقاليد التي تعودت عليها في البيت القديم، وفيما كانت "ايرنديرا" تُروّح عليها بالمروحة، عادت لتتنفس هواءها العقيم.

قالت الجدة:

- عليك بالاستيقاظ مبكراً، لتجهزي حمامي بالأعشاب قبل قدوم الزبائن.
- نعم يا جدة.
- وفي الوقت الذي يتبقى لك، اغسلي ملابس الخدم الهنود القذرة، وهكذا سوف يكون لدينا شيء آخر لاستقطاعه من أجرهم في الأسبوع المقبل.

قالت "ايرنديرا":

- نعم يا جدة.
- وقدمي للنعامة طعامها.

قالت "ايرنديرا":

- نعم يا جدة.
- ونامي بهدوء حتى لا تتعبي، فغداً الخميس أطول أيام الأسبوع.
- نعم يا جدة.

تركت "ايرنديرا" المروحة على السرير وأشعلت شمعتين أمام صندوق موتاهما. ثم استمعت من الجدة إلى أوامرها الأخيرة:

- لا تنسي إشعال شموع "آل أماديس".
- نعم يا جدة.

فهمت "ايرنديرا" أن الجدة لن تفيق مرة ثانية، لأنها بدأت في الهذيان، وسمعت نباح الريح حول الخيمة، ومرة أخرى لم تتعرف على ريح تعاستها، وانتظرت هبوط الليل، إلى أن عادت البومة إلى النعيق، وأخيراً انتصرت غريزة الحرية على سحر الجدة.

لم تكد "ايرنديرا" تخطو خمس خطوات خارج الخيمة، حتى التقت بالمصوِّر الذي كان يحزم متاعه على الدراجة، طمأنتها ابتسامته المتواطئة.

قال المصوِّر:

- أنا لا أعرف شيئا، لم أرَ شيئاً، و لن أدفع نصيبي في الموسيقى.

ودعها بمباركة كونية، فانطلقت "ايرنديرا" نحو الصحراء، وتاهت في تأوهات الريح فلم تكن تعرف أين كانت تنعق البومة.

في هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطات المدنيــة، قفــز رئــيس المخفر عن سريره المعلق في السادسة صباحاً، حين وضعت الجــدة أمام عينيه رسالة السناتور، فيما كان والد "أوليســيس" ينتظــر أمــام الباب.

صرخ رئيس المخفر:

- كيف تريدين أن أقرأ هذه الرسالة، أنا لا أجيد القراءة.

قالت الجدة:

- هذه رسالة توصية من السناتور "أونسيمو سانشيث".

التقط رئيس المخفر بندقيته المعلقة، وبدأ في إصدار أوامره إلـــى الشرطة، وبعد خمس دقائق، كانوا يطيرون في سيارة عسكرية باتجاه الحدود، وكانت الرياح المعاكسة قد محت آثار الهاربين. كان رئــيس المخفر يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار الســائق، ومــن خلفــه الهولندي والجدة، وعلى جانبي الشاحنة كان هناك جنديان بأسلحتهما.

أوقفوا قافلة من الشاحنات المموهة بالقرب من القرية، كــان بهــا بعض المسافرين خفية، يحملون بنادق ومــدافع رشاشــة، صــوبوها باتجاه رئيس المخفر، الذي سأل سائق الشاحنة الأولى في القافلة عن المكان الذي شاهدوا فيه شاحنة محمّلة بالطيور، إلا أن السائق انطلق بشاحنته دون أن يجيب، ثم قال في غيظ:

- لسنا جواسيس نحن مهربون.

شاهد رئيس المخفر فوهات المدافع الرشاشة مصوبة نحوه، وهي تمر أمام عينيه. رفع يده مبتسما وصاح:

- شيء من الحياء، لا تتنقلوا هكذا في وضح النهار.

كانت الشاحنة الأخيرة عليها كتابة بحروف واضحة تقول: (إنــي أفكر فيك يا "ايرنديرا"). توجهت الشاحنة العسكرية بعد ذلك شــمالا، وكلما توغلوا ازدادت الريح جفافاً، وكانت الشمس قويــة فــي هــذه الرياح، وبسبب الحرارة والغبار كان التنفس صعباً في داخل الشاحنة المغلقة.

كانت الجدة أول من شاهد المصوِّر الــذي كــان مســافراً علــى دراجته، في نفس الطريق الذي يسلكونه، كان يحتمي مــن الشــمس بمنديل مربوط على رأسه.

أشارت نحوه الجدة قائلة:

- هذا هو المتواطئ معهم، ابن العاهرة.

أمر رئيس المخفر أحد رجاله بأن يتولى أمره قائلاً:

- اقبض عليه وانتظرنا هنا، سوف نعود حالاً.

قفز الشرطي من على سلم الشاحنة، وصاح في المصوِّر بصوت عال مرتين، لم يسمع المصوِّر شيئاً بسبب الرياح المعاكسة، وعنــدما تقدمته الشاحنة أشارت إليه الجدة إشارة غير مفهومة، فاعتقــد أنهــا تحييه، ابتسم ابتسامة صغيرة وأشار إليها محيياً، ولم يسمع الطلقــة، طار في الهواء ثم سقط ميتاً على دراجته، بعد أن فلقت رأسه إحــدى الرصاصات، التي مات دون أن يعرف أبداً من أين أتته.

قبل منتصف النهار بدأوا يشاهدون الريش الذي انتزعته الريح من الطيور، كان ريش طيور صغيرة، فتعرّف الهولنــدي علــى ريــش طيوره، الذي كانت الريح قد انتزعته، فغيّر السائق اتجاهه، وضــغط

على دواسة البنزين بأقصى ما يستطيع، وقبل أن تمر نصف ساعة، شاهدوا شاحنة صغيرة تظهر في الأفق.

عندما لمح "اوليسيس" السيارة العسكرية، حاول زيادة السرعة، لكن المحرك خذله، لقد سافرا دون أن يتذوقا طعماً للنوم، وكادا يموتان عطشاً وتعباً، أفاقت "ايرنديرا" التي كانت غافية على كتف "أوليسيس"، أفاقت مذعورة عندما شاهدت السيارة التي على وشك اللحاق بهما، وأخرجت بطفولية المسدس من جرابه.

قال "أوليسيس":

- لا فائدة من ذلك، إنه مسدس لعبة من ألعاب "فرانسيس دارك".

خبطت "ايرنديرا" المسدس عدة مرات ثم ألقت به من النافذة، تجاوزت السيارة العسكرية الشاحنة الصغيرة، بطيورها المنزوعة الريش بسبب الرياح القوية، وانعطفت بعد ذلك انعطافة قوية وسدت الطريق أمام "أوليسيس" ورفيقته.

-6-

اشتهرت قصتهما في تلك الفترة، التي بلغت فيها أوج عظمتها، ورغم أني لم أكن أعرف تفاصيل حياتهما إلا في سنوات متأخرة بعد ذلك، عندما صوَّر "رفائيل إسكالونا" نهاية مأساتهما العنيفة في أغنية حزينة، فاعتقدت أن هذه المأساة جديرة بالرواية. وسمعت هذه الحكاية عندما كنت أتجول في إقليم "ريو أتشا" كبائع موسوعات؛ وكتب طبية، وكان صديقي "ألفارو ثيبيدا ساموديو" يجوب ذلك الإقليم أيضاً ليبيع ماكينات البيرة المثلجة، فأخذني معه في الشاحنة الصغيرة التي يتجول بها، وجال بي في قرى الصحراء، وكان يرغب في أن يحدثني عن أشياء لا أعرف ما تكون، وتحدثنا كثيراً ولكن عن لاشيء، وشربنا كثيراً من البيرة حتى أننا لم نعرف من أين عبرنا الصحراء، ولا كيف وصلنا إلى الحدود، هناك كانت توجد خيمة الحب التائهة، تختفي خلف لافتات تقول:

"ايرنديرا هي الأفضل"

"اذهب وعد فايرنديرا في انتظارك"

"الحياة بلا معنى بدون ايرنديرا"

كان الطابور المتعرج الذي لا ينتهي، والمكون من رجال من أجناس مختلفة، ولكل منهم ظروف متباينة، يبدو كثعبان بشري ينام في أراض وميادين خيالية، ويمر بين حوانيت مبرقشة، ويمتد ليصل إلى خارج شوارع تلك المدينة المكتظة بالمهربين الغرباء، كل شارع دار عامة للمقامرة، كل بيت حانة، كل باب ملجأ للراغبين في

الهرب. وتحت وطأة الحرارة المذهلة، كانت الألحان العديدة الغامضة، تتشابك مع صراخ الباعة في صخب مذعور.

بين حشود المشردين؛ والانتهازيين، كان "الرجل الوطواط" الجريء يعتلي طاولة، ويطالب بثعبان حقيقي ليجرب في لحمه أثر ترياق من اختراعه. وكانت هناك المرأة التي تحولت إلى عنكبوت لعصيانها أوامر والديها، وكانوا يسمحون بلمسها مقابل خمسين سنتاً، حتى يمكن التأكد من صدق حكايتها، وكانت تجيب على الأسئلة التي يطرحونها عليها، حول أسباب تعاستها التي تعيشها، بعد تحولها إلى هذه الهيئة المرعبة. كان هناك أيضا أحد العائدين من الحياة الأخرى، يعلن عن مجيء وطواط سماوي، ينفث دخاناً مرعباً، فتغيّرُ أنفاسه الكبريتية المُحرِقة، نظام طبيعة الكون، فتطفو على الأمواج كل أسرار البحر الخفية.

المكان الهادئ الوحيد هو حي البغاء، الذي لم يكن يصله إلا القليل من صخب المدينة، وكانت هناك نساء قادمات من جهات الأرض الأربع، يتثاءبن قلقاً في المراقص المهجورة، ويقضين القيلولة جالسات دون أن يوقظهن أي زبون، جالسات على الأرض الملساء، يواصلن انتظار مجيء الوطواط السماوي، تحت المراوح المدلاة من الأسقف.

انتفضت إحداهن فجأة، واتجهت إلى الصالة المطلة على الشارع، حيث كان يمر موكب زبائن "ايرنديرا".

صاحت فيهم المرأة:

- بماذا تمتاز هذه المرأة عنا؟

فصاح أحدهم:

- لديها رسالة من السناتور.

وظهرت نساء أخريات، اجتذبهن الصراخ؛ والضحكات إلى الصالة، وقالت إحداهن:

- منذ أيام، وهذا الطابور لا ينتهي، بخمسين بيزو للواحد، هل تتخيلين!!

فردت المرأة التي خرجت أولاً قائلة:

- سوف أذهب لأرى ما لدى هذه البائسة من ذهب.

قالت أخرى:

- وأنا أيضاً، إنه أفضل من تدفئة المكان مجاناً.

وفي الطريق التحقت بهن نساء أخريات، وعندما وصلن إلى خيمة "ايرنديرا" صرن طابوراً صاخباً، دخلن الخيمة عنوة، وضربن الرجل الذي وجدنه مع "ايرنديرا" بالوسائد، ففقد القدرة على الاستمتاع قدر استطاعته، مقابل ما دفعه من مال، وحملت النساء سرير "ايرنديرا" كالنعش.

صرخت الجدة:

- إنه اعتداء صارخ، أيتها الخائنات، أيتها الفاسقات.

ثم اتجهت إلى الرجال المصطفين وصرخت فيهم:

- وأنتم أيها الجبناء، أين رجولتكم التي تسمح لهاتيك الفاسقات بأن يهاجمن هذه المخلوقة المسكينة... يا أشباه الرجال.

ظلت تصرخ بأقصى ما تستطيع من قوة صوت، وهي ترفع عصاها مهددة كل من لحقت به، لكن صوتها الغاضب ذاب في الصخب الجماهيري وصيحات السخرية التي كانوا يطلقونها. لم تستطع "ايرنديرا" الهرب بعد أن منعتها سلسلة الكلب التي ربطتها بها الجدة منذ محاولة هروبها، لكن لم يصبها أحد بأذى. جرجروها وهي على السرير ذي القبة في أكثر الشوارع ازدحاماً، ثم وضعوها في

الساحة المُحرِقة وسط الميدان الكبير، كانت متكورة حول نفسها، وتستر وجهها دون بكاء، ظلت تحت شمس الميدان القاسية، وهي تعض سلسلة الكلب من الخجل والغضب، وتنعي حظها السيئ، إلى أن عطف عليها أحدهم وغطاها بقميص.

هذه هي المرة الوحيدة التي شاهدتُ فيها أنا هذه المرأة، لكنني عرفت أنها وجَدَّتُها بقيتا في تلك المدينة إلى أن فاضت خزائن الجدة، فهجرتا الصحراء باتجاه البحر، ويقال إنه لم يشاهد أحد ثروة مثل ثروتهما في تلك الممالك الفقيرة، كان موكبهما يتكون من عربات تجرها الثيران، وعليها كومة من الأثاث التافه من بقايا حريق البيت القديم، ليس فقط تماثيل الأباطرة؛ والساعات الحائطية البشعة، بل كان هناك البيانو القديم، والفونوغراف اليدوي؛ واسطوانات الحنين إلى الماضي، وكان هناك جمع من الهنود الحمر يعتني بالحمولة، وفرقة موسيقية تعلن وصول الركب بحماس شديد.

كانت الجدة تسافر على محفة مزخرفة بالأشرطة الورقية، وهي تحصي دينها على سرير كنسي مظلل، لقد ازداد حجمها الأثري ضخامة، لأنها كانت ترتدي تحت قميصها صديرياً من الكتان، وضعت فيه سبائك الذهب كرصاص مدسوس في حزام الخراطيش، وكانت "ايرنديرا" بجانبها، ترتدي ثياباً زاهية مزينة بكل الألوان، ولكنها كانت لا تزال مربوطة بسلسلة الكلب في قدميها.

أثناء مغادرتهما لمنطقة الحدود، قالت الجدة:

- لا يمكنك التذمر، فأنت تملكين الآن ثياب ملكة وسريراً فاخراً، وفرقة موسيقية خاصة بك، وأربعة عشر هندياً في خدمتك، أليس هذا شيئاً رائعاً؟
- نعم يا جدة.

وأضافت الجدة:

- عندما أموت لن تقعي تحت رحمة الرجال، سيكون لك بيتك الخاص في مدينة كبيرة، وسوف تكونين حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة ومفاجئة للمستقبل، فلم تعد الجدة إلى الحديث عن الدين الأصلي الذي تُدين به "ايرنديرا" للجدة، والذي تشابكت تفاصيله وآجال تسديده المتزايدة. ومع ذلك لم يند عن "ايرنديرا" أية حركة تنم عن أفكارها الخاصة، كانت تتحمل عذاب السرير في صمت وسط برك الملح، وفي غفوات القرى على ضفاف البحيرات، وبالقرب من فوهات مناجم التلك، بينما كانت الجدة تحدثها عن المستقبل كما لو كانت تطالع النجوم. وذات مساء وبعد خروجهما من طريق ضيق، اشتمتا رائحة نباتات قديمة، وسمعتا بعض الأحاديث باللهجة الجامايكية، فأحستا بشوق للحياة، وبانقباض في القلب، لقد وصلتا إلى شاطئ البحر.

قالت الجدة، وهي تستنشق ضوء الكاريبي الشفاف، بعد حياة طويلة في الصحراء:

- إنه هناك... هل يعجبك البحر؟
- نعم يا جدة.

نصبتا الخيمة، وقضت الجدة الليل بطوله تتحدث دون أن تنام، وكانت أحياناً تمزج ذكرياتها برؤيتها للمستقبل، ثم نامت حتى ساعة متأخرة عن العادة. استيقظت على ضجة البحر، وبينما كانت "ايرنديرا" تحممها، عادت الجدة إلى الحديث عن المستقبل في هيجان عنيف، فبدا هذا الحديث كهذيان السهر.

قالت الجدة:

- سوف تصبحين سيدة قصر حقيقية، سيدة محترمة، محمية، ومُكَرَّمة من قِبل السلطات العليا في البلاد، سوف يبعث إليك ربابنة السفن ببطاقات بريدية من جميع موانئ الدنيا.

لم تكن "ايرنديرا" تنصت إليها، وكان الماء الدافئ المعطر، يتدفق في الحوض من مجرى يتزود من الخارج، كانت "ايرنديرا" تغـرف الماء بيد مستخدمة إناء فولاذياً، وتصب الماء على جسد الجـدة فـي صمت وسكون، وتدعكها بالصابون باليد الأخرى.

قالت الجدة:

- سوف تطير شهرتك من فم إلى فم، من جزر الأنتيل، حتـى آخـر الممالك الهولندية، وسوف يكون قصرك أكثر أهميـة مـن قصـر الرئاسة، وهناك، في قصرك، سـوف يناقشـون شـئون الدولـة، ويقررون مصير الوطن.

فجأة انقطع سيلان الماء، فخرجت "ايرنديرا" من الخيمة لتسـتطلع الأمر، فشاهدت الهندي المكلف بصب المـاء يقطـع الخشـب فـي المطبخ.

قال الهندي:

- لقد نفد الماء... يجب تبريد كمية أخرى.

ذهبت "ايرنديرا" إلى الفرن الذي كانت تغلي الماء فوقه في قِـدْر كبير، تفوح منه رائحة الأوراق المعطرة، لفّت يديها ببعض الخـرق، ولما تبينت أنها تستطيع رفع القدر دون مساعدة من الهندي، قالت له:

- اذهب... سوف أتولى وضع الماء.

انتظرت إلى أن خرج الهندي من المطبخ، ثم رفعت القـدر مـن على النار، ورفعته إلى مستوى المجرى بصعوبة، كانت على وشـك أن تصب الماء القاتل في المجرى الذي يؤدي إلى الحوض، عنـدما صاحت الجدة من داخل الخيمة:

- "ايرنديرا".

كما لو كانت الجدة قد شاهدت الحفيدة، التي خافت من الصرخة فندمت في اللحظة الأخيرة.

قالت "ايرنديرا":

- أنا قادمة يا جدة... إنني أبرّد الماء.

منذ تلك اللحظة ظلت "ايرنديرا" تفكر وحتى ساعة متأخرة من الليل، وبينما كانت الجدة تغني وهي نائمة، بصدارها الذهبي، كانت "ايرنديرا" تنظر إليها، من فراشها، بعينين متقدتين، كعيني قط تلمعان في الظلام، ثم تمددت كغريق، ويداها على صدرها، وعيناها مفتوحتان، ونادت في داخلها، بكل ما تملك من قوة في صوتها:

- "أوليسيس".

استيقظ "أوليسيس" فجأة في بيت البرتقال، لقد سمع صوت "ايرنديرا" بكل وضوح، بحث عنها في ظلام الحجرة، وبعد لحظة من التأمل لفّ ملابسه؛ وحذاءه، وترك غرفة نومه، وبعد أن عبر الشرفة فاجأه صوت أبيه:

- إلى أين؟

شاهده "أوليسيس" تحت ضوء القمر الأزرق، فأجابه:

- إلى الدنيا.

قال الهولندي:

- لن أمنعك هذه المرة، لكني أحذرك من شيء، سوف تلاحقك لعنة أبيك حيثما ذهبت.

قال "أوليسيس":

- ليكن ما تريد.

كان الهولندي مذهولاً، بقليل من الاعتزاز، بإرادة ابنه، تابعه بنظره بين أشجار البرتقال السابحة في ضوء القمر، وشيئاً فشيئاً بدأ

يبتسم، كانت زوجته تقف من خلفه وقد بدت جميلة على طريقتها الهندية، وعندما أغلق "أوليسيس" الباب، قال الهولندي:

- سوف يعود، بعد أن تقسو عليه الحياة، بأسرع مما تتصورين.

تنهدت قائلة:

- أنت متوحش... لن يعود أبداً.

هذه المرة لم يكن "أوليسيس" في حاجة إلى السؤال عن الطريق الموصل إلى "ايرنديرا"، قطع الصحراء متخفياً في بعض الشاحنات العابرة، كان يسرق ليأكل وينام، وأحياناً كان يسرق حباً في المخاطرة، إلى أن عثر على الخيمة في قرية ساحلية. كان يمكنه أن يرى منها النباتات البلورية الضخمة لمدينة مضاءة، ترن فيها تحيات الوداع الليلية المتبادلة بين السفن المبحرة إلى جزيرة أوروبا، كانت "ايرنديرا" نائمة وهي مربوطة إلى قضبان سريرها، وفي نفس وضع الغريق الذي نادته منه. ظل "أوليسيس" يتأملها لفترة طويلة دون أن يوقظها، لكنه كان يتأملها بعمق فاستيقظت "ايرنديرا"، وتعانقا في الظلام، تداعبا في هدوء، وبرقة صامتة وسعادة خفية، وتعريا حتى التعب كعاشقين ليس لهما مثيل.

في الطرف الآخر من الخيمة كانت الجدة نائمة، دارت حول نفسها نصف دورة، و بدأت في الهذيان:

- كان ذلك عندما جاءت السفن الإغريقية، كان بحّارتها المجانين، قد أسعدوا النساء، ولم يدفعوا لهن أجرهن نقداً بل بالإسفنج،، كان إسفنجاً حياً يخطر في البيوت، متأوهاً كمرضى المستشفيات، فيدفع الأطفال إلى البكاء، ليشرب دموعهم.

تحركت الجدة حركة غامضة ثم جلست في سريرها، وصاحت:

- كان ذلك عندما جاء هو، يا إلهي، كان أقوى بكثير، وأكبر، وأكثر رجولة من "أماديس".

حاول "أوليسيس" الاختفاء عندما شاهد الجدة جالسة على السرير، رغم أنه لم يكن ينصت لهذيانها، فطمأنته "ايرنديرا" وقالت له:

- اهدأ... فهي عندما تصل إلى هذه المرحلة من الهذيان، تجلس على سريرها، لكنها لا تستيقظ.

تمدد "أوليسيس" مستنداً إلى كتف "ايرنديرا".

واصلت الجدة:

- في تلك الليلة كنت أُغني للبحارة، وظننتُ أن زلزالاً أرضياً قد وقع، وأعتقد أنهم جميعاً اعتقدوا هذا، لأنهم هربوا، وهم يصيحون ويقهقهون، وكان هو الوحيد الذي بقي في الحانة، ما زلت أتذكر ذلك، كما لو كان قد حدث بالأمس. كنت أُغني الأغنية التي كان يغنيها الجميع في ذلك الزمان، حتى الببغاوات كانت تغنيها في أفنية البيوت، وبدون إيقاع مثلما نغني في الأحلام، فغنى هو بحروف مريرة:

"إلهي، إلهي، أعد إلى براءتي
لأنعم بحبه مرة أخرى، منذ البداية.."

في هذه اللحظة انتبه "أوليسيس" إلى ذكريات الجدة.

واصلت الجدة:

- كان هناك، وعلى كتفه ببغاء وفي يده بندقية، كان يشبه "جواترال" عند وصوله إلى "جوايانا"، وعندما انتصب أمامي، شممت رائحة، تشبه رائحته، تلك التي تبدو كرائحة الموت، قال لي: "طفتُ العالمَ ألف مرة، ورأيتُ النساءَ جميعاً، وفي كل الأمم، ويمكنني أن أقول إنكِ أجمل وأمجد نساء الأرض".

ثم تمددتْ على الفراش من جديد ونشجت بالبكاء، ظل "أوليسيس" و"ايرنديرا" صامتين لوقت طويل، يهددهما تنفس الجدة المتلاحق في الظلام.

فجأة ودون أدنى تردد سألت "ايرنديرا" "أوليسيس":

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذت المفاجأة "أوليسيس"، ولم يدرِ بماذا يجيبها:

- لا أدري... وأنتِ هل تجرؤين؟

قالت "ايرنديرا":

- أنا لا أستطيع.. لأنها جدتي.

راقب "أوليسيس" الجسد الضخم النائم من جديد، كمن يقيس ما في داخله من حياة، وقال مؤكِداً:

- من أجلكِ، أنا قادر على فعل أي شيء.

-7-

اشترى "أوليسيس" رطلاً من سم الفئران، وخلطه بالقشدة ومربى التوت، وصبَّ هذا الخليط القاتل في قلب تورتة من الحلوى، بعد أن أفرغها مما تحتويه، ثم غطاه بطبقة سميكة من القشدة، وسواها بملعقة، ليخفي أي أثر لهذه المناورة المشئومة، وأكمل الخدعة بوضع اثنتين وسبعين شمعة وردية اللون على التورتة.

انتصبت الجدة على الأريكة، ورفعت عصاها مهددة عندما شاهدت "أوليسيس" يدخل الخيمة حاملاً تورتة عيد الميلاد.

صاحت:

- يا وقح، كيف تجرأت على الدخول إلى هنا؟

تخفى "أوليسيس" خلف ملامحه الملائكية، وقال:

- جئت للاعتذار، فاليوم عيد ميلادك.

خففت الكذبة المُحكمة من غضب الجدة، فأمرت بإعداد المائدة كما يحدث في الأعراس، وأمرت "أوليسيس" بالجلوس إلى يمينها، فيما كانت "ايرنديرا" تقدم لهما الأطباق، وبعد أن أطفأت الجدة الشموع بنفخة واحدة قوية، قسّمت الحلوى إلى أجزاء متساوية وقدمت لـ "أوليسيس" نصيبه منها قائلة:

- من يجيد الاعتذار له نصف الجنة، أَتركُ لك القطعة الأولى لأنها جزء من السعادة.

فرد قائلاً:

- أنا لا أحب الحلوى، هنيئاً لكِ بها.

قدمت الجدة جزءاً إلى "ايرنديرا"، التي حملته إلى المطبخ وألقت به في صندوق القمامة، أكلت الجدة كل ما تبقى وحدها، وكانت تلتهم قطعا بأكملها، وتبتلعها دفعة واحدة، وهي تتلذذ و تنظر لـ"أوليسيس" بسعادة، وعندما لم يتبقَ في طبقها شيئ، التهمت نصيب "أوليسيس"، وبعد ذلك بدأت في التقاط الفتات الذي سقط على مفرش المائدة، وأكلته.

ابتلعت كمية من الزرنيخ تكفي لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك عزفت على البيانو، وغنت حتى منتصف الليل، ثم تمددت على فراشها سعيدة، ونامت نوماً طبيعياً، الشيء الوحيد غير العادي، هو تنفسها الذي كان يشبه ضجيج تدحرج الحجارة.

كان "أوليسيس" و"ايرنديرا" يراقبانها من السرير الآخر، كانا ينتظران الحشرجة الأخيرة، لكن عندما بدأت في الهذيان، كان صوتها كعادته ينبض بالحياة.

صاحت الجدة:

- لقد طيّر عقلي، يا إلهي، لقد طار عقلي، وضعتُ متراسين خلف الباب حتى لا يدخل، ووضعت المنضدة والطاولة أيضاً، وأضفتُ إلى ذلك الكراسي، وعندما خبط الباب الخبطة الخفيفة الأولى انهار المتراس، وتطايرت الكراسي، وتدحرجت المنضدة والطاولة دون أن يلمسهما أحد، وانزلق المتراسان.

كان "أوليسيس" و"ايرنديرا" يراقبانها في حيرة، وكانت حيرتهما تزداد كلما ازداد هذيانها عمقاً ودرامية، وازداد الصوت ألفة:

- كنتُ أشعرُ أنني أموت، كنتُ أتصببُ عرقاً من الخوف، كنتُ أرجو من أعماقي، أن ينفتح الباب، دون أن يفتحه أحد، كنتُ أرجوه أن يدخل دون أن يدخل، ألا يذهب وألا يعود أبداً، حتى لا أُضطرُ إلى قتله.

واصلتْ الجدة لعدة ساعات رواية مأساتها بكل التفاصيل الدقيقــة، كما لو كانت تعيشُ أحداثها أثناء نومها، وقبل الفجر بقليل، تقلبت في فراشها كزلزال، وتهدج صوتها بالنشيج:

- حذرته فضحك، وعدتُ إلى تحذيره فعاد لضــحكه، إلـــى أن فــتح عينيه المرعبتين قائلاً: "آه يا مليكتي.. آه يا مليكتـــي"، لــم يكــن الصوت يخرج من فمه بل من حنجرته المطعونة.

تشبث "أوليسيس" بيد "ايرنديرا" وقد أفزعته ذكريات الجدة الرهيبة.

هتف:

- أيتها العجوز المجرمة.

لم تكن "ايرنديرا" تعيره انتباهاً، لأن الفجر اقترب، فقــد أعلنــت الساعات عن الخامسة صباحاً.

قالت "ايرنديرا":

- اذهب، إنها على وشك الاستيقاظ.

صاح "أوليسيس":

هذا غير معقول إنها أكثر حيوية من فيل.

حدجته "ايرنديرا" بنظرة قاتلة، وقالت:

- الحقيقية أنك لا تستطيع قتل أحد.

تأثر "أوليسيس" من اللوم القاسي، فهرب إلـــى خـــارج الخيمـــة، وظلت "ايرنديرا" تراقب الجدة النائمة بحقد خفي، وغضبٍ مكبـــوت، فيما كان ضوء النهار يتسلل موقظاً زقزقةً العصافير، عندئذ فتحـــت الجدة عينيها ونظرت إلى "ايرنديرا" بابتسامة هادئة:

- حفظكِ الله يا بنيتي.

التغير الوحيد الذي لُوحظ على الجدة، هو بدايـــة الفوضـــى فـــي عاداتها، كان اليوم يوم أربعاء، لكن الجدة طلبت ملابس يوم الأحـــد،

وقررت ألا تستقبل "ايرنديرا" أي زبون قبل الحادية عشرة، وطلبت منها أن تطلي أظافرها بالأحمر الرماني، وأن تُسرّح لها شعرها بطريقة دينية.
وهتفت:
– لم تكن لدي رغبة في أن تُلتقط لي صورة كما أرغب اليوم.
بدأت "ايرنديرا" في تمشيطها، ولكن عند تمرير المشط بين شعرها، علَقتْ خصلة في أسنان المشط، قدمتها للجدة وهي ترتجف، تفحصتها الجدة، وحاولت أن تجذب إحدى الخصلات بيدها، فاقتلعتها، وألقت بها على الأرض، وجذبت شعيرات أخرى، ثم نزعت خصلة أكبر، ثم تحمست لنزع كل شعرها بكلتا يديها، وهي تضحك بهستيرية، وكانت تلقي بشَعرها في فرح غامض، حتى صارت رأسها مثل جوزة الهند المقشرة.
مرَّ أسبوعان، دون أن تعرف "ايرنديرا" أي نبأ عن "أوليسيس"، وعندما سمعت صوت البومة خارج الخيمة، كانت الجدة تعزف على البيانو وهي غارقة في الذكريات، حتى أنها لم تنتبه إلى ما يحدث من حولها، وكانت تضع على رأسها شعراً مستعاراً من ريش لامع.
استجابت "ايرنديرا" للنداء، وعندما لمحت فتيل المتفجرات، الذي يبدأ من صندوق البيانو، ويمتد ملتوياً بين الشجيرات، ويضيع في الظلام، انطلقت تجري نحو "أوليسيس"، واختفت بين الأشجار الصغيرة بالقرب منه، وبقلب خافق شاهدا معاً الشعلة الزرقاء تسري متتبعة الفتيل، وقد عبرت المسافة المظلمة وتسللت إلى داخل الخيمة.
قال "أوليسيس":
– سُدّي أذنيك.
سد كل منهما أذنيه بسرعة، مع أنهما لم يكونا في حاجة إلى ذلك، لأن الانفجار لم يحدث، فقد شعّت الخيمة من الداخل بضوء

صامت، سرعان ما تلاشى بسبب البارود المبلل بالماء، وعندما تجرأت "ايرنديرا" على الدخول، اعتقدت أن الجدة ماتت، لكنها عثرت عليها بشعرها المستعار الذي احترق، وقميصها الذي صار أسمالاً. كانت أكثر حيوية من ذي قبل، وتحاول السيطرة على الحريق ببطانية.

اختفى "أوليسيس" مغتنماً فرصة حيرة الهنود، الذين لم يعرفوا ماذا يفعلون بسبب أوامر الجدة المتناقضة، وعندما نجحوا في السيطرة على النيران، وانقشع الدخان، بدا المشهد كمكان أغرقه طوفان.

قالت الجدة:

- يبدو أنها فعلة خبيثة، البيانو لا ينفجر بلا سبب.

خمّنت كل الافتراضات لتعرف أسباب الكارثة الجديدة، لكن مراوغات "ايرنديرا" وموقفها الجسور نجحا في مغالطة الجدة، التي لم تجد أي شك في سلوك الحفيدة، ولكنها لم تتذكر "أوليسيس"، ظلت الجدة يقظة حتى الفجر، وهي تضرب أخماساً في أسداس، وتحسب مقدار الخسارة، ثم نامت نوماً طويلاً ومزعجاً، وفي صباح اليوم التالي، عندما كانت "ايرنديرا" تنزع عنها صديري السبائك الذهبية، شاهدت حروقاً في كتف الجدة، وصدرها العاري، فدهنتها بزلال البيض.

قالت الجدة:

- لقد فهمت الآن لماذا كنت أتقلب أثناء نومي، وأيضاً لماذا حلمت حلماً مزعجاً.

ثم بذلت جهداً كبيراً في التركيز، واستعادة الصورة، التي بدت واضحة في ذاكرتها كما كان الحلم.

قالت:

- إنها صورة طاووس في أرجوحة بيضاء.

فوجئت "ايرنديرا" بالحلم، لكنها سرعان ما قدمت تفسيراً كاذباً للجدة:
– هذا فأل طيب، فالطاووس في الأحلام يعني طول العمر.
قالت الجدة:
– يسمع الله كلامك، لأننا لا زلنا في البداية، وينبغي أن نبدأ من جديد.

لم تنزعج "ايرنديرا"، وخرجت من الخيمة حاملة إناء الكمادات، وقد تركت الجدة وزلال البيض يسيل على جذعها، وجمجمتها الملطخة بالخردل، وبينما كانت "ايرنديرا" في الكوخ الذي يستخدمونه كمطبخ لتصب زلالاً آخر، لمحت عينيْ "أوليسيس" تظهران من خلف الفرن، كانتا تشبهان عينيه عندما شاهدتهما أول مرة من خلف سريرها، لم يفاجئها ذلك، ولكنها قالت بصوت مُتعب:
– كل ما فعلته هو زيادة ديوني.

امتلأت عينا "أوليسيس" بالحيرة، فظل جامداً في مكانه، نظر إليها في صمت وهو يرقبها تُكسِّر البيض، كانت ملامحها تعبر عن الاحتقار والتجاهل، بعد قليل تجول بعينيه متفحصاً محتويات المطبخ: القدور المعلقة، مشكاة الثوم، الأطباق، سكين الذبح. كان "أوليسيس" في حالة ذهول، فدخل الكوخ دون أن ينطق كلمة واحدة، التقط السكين من مكانه، فأشاحت "ايرنديرا" بوجهها عنه، ولكن في اللحظة التي كان يغادر فيها المطبخ قالت له بصوت خافت:
– احترس، إنها تعرف أن ساعتها قد حانت، لقد شاهدتْ في حلمها طاووسا في أرجوحة بيضاء.

عندما رأت الجدة "أوليسيس" يدخل الخيمة، والسكين في يده، بذلت جهداً كبيراً لكي تتمالك، دون مساعدة العصا، ثم رفعت يديها صارخة:
– هل جننت... يا ولد.

قفز "أوليسيس" عليها، وطعن صدرها العاري طعنة محكمة، فتأوهت الجدة، وأبعدته عنها، ثم حاولت خنقه بيدين قويتين كمخلبي دب، وزمجرت:

- يا أبن العاهرة... لقد فات الوقت لكي أعرف ما وراء وجهك الملائكي.

لم تعد قادرة على الكلام، حرر "أوليسيس" يده القابضة على السكين، وطعنها طعنة أخرى في خصرها، فأطلقت الجدة آهة مخنوقة، وضيّقت عليه الخناق، فطعنها بلا شفقة طعنة ثالثة، فانفجر الدم منها ولطّخ وجهه: كان دماً زيتياً، أخضر، ولامعاً، كعسل النعناع.

ظهرت "ايرنديرا" في المدخل، وفي يدها الإناء، راقبت الصراع ببرود إجرامي، وتعلقت الجدة بجسد "أوليسيس"، كانت ضخمة وتصرخ ألماً وحقداً، كان ذراعاها، وساقاها، وحتى جمجمتها العارية ملطخة بالدم الأخضر، استطاع "أوليسيس" أن يحرر يده ثانية، وفتح في بطنها نتوءاً فانفجر الدم الأخضر، وغطاه حتى قدميه، ققفز "أوليسيس" من بين الذراعين المنهارين، ودون تمهل طعن الجسد الضخم الطعنة النهائية.

وضعت "ايرنديرا" الإناء على المائدة، ثم انحنت على الجدة وتفحصتها دون أن تلمسها، وعندما تأكدت من موتها، لمَعَ وجهها فجأة، بكل النضج الذي حُرمت منه طوال عشرين عاماً من التعاسة، وبحركة دقيقة وسريعة التقطت صديري السبائك الذهبية، وخرجت من الخيمة.

بقي "أوليسيس" جالساً إلى جوار الجثة، وقد أنهكه الصراع، وكلما حاول أن ينظف وجهه كانت المادة الخضراء الحية تُلطخه، كما لو

كانت تسيل من أصابعه، ولم ينتبه إلا عندما شاهد "ايرنديرا" تخرج وفي يديها صديري السبائك الذهبية.

ناداها صارخاً لكنه لم يسمع جواباً، زحف حتى مدخل الخيمة فشاهد "ايرنديرا" وقد بدأت في الجري باتجاه الساحل، في الاتجاه العكسي لاتجاه المدينة، بذل أقصى جهده ليلحق بها، كان يناديها بأقصى ما يستطيع، لكن صوته لم يكن صوت عاشق، بل كان صوت طفل، ثم انهار تحت وطأة التعب العنيف، الذي أصابه من جراء قتل امرأة، دون مساعدة أحد، وجده الخَدم الهنود ملقى على الشاطئ، يبكي من الخوف والوحدة.

لم تسمعه "ايرنديرا"، كانت تجري في عكس الريح، كانت أسرع من غزال، لم يكن أي صوت على هذه الأرض قادراً على إيقافها، لم تُدر رأسها رغم الهواء المشبع بالبخار الناري، مرت ببرك الملح، وأفواه شعاب التلك، وأكواخ قرى المستنقعات، إلى آخر ما تحتويه علوم الطبيعة البحرية، إلى أن وصلت إلى بداية الصحراء، لكنها واصلت جريها حاملة في يدها صديري السبائك الذهبية، هربت إلى ما وراء الرياح الجافة، والأماسي التي بلا نهاية، ولم نعد نسمع عنها شيئاً، ولم نعثر على أي أثر لتعاستها.

نابو ..
الزنجي الذي انتظرته الملائكة

كان "تابو" منبطحاً على وجهه فوق الحشـــائش، يتشـــمم رائحـــة الإسطبل البولية العالقة بجسده، متحسساً الجلد الأسمر اللامع والجذوة الخابية للخيول الأخيرة، لم يكن يشعر بالجلد، لم يكن "تابو" يشعر بأي شيء على الإطلاق، كما لو كان قد لبث نائماً منذ آخر ضربة حـــدوة في رأسه، لم يكن أكثر إحساساً بالوحدة مما هو عليه الآن، كان كمن يتخيل رائحة الإسطبل لأول مرة، تلك الرائحة العالقة بالحشائش، فتح عينيه، أعاد إغلاقها، استمر ساكناً، معتداً بنفسه، قوياً، كما لو كـــان يحلم طوال المساء، خارج الزمن، إلى أن قال له أحدهم مـــن خلـــف ظهره: "هيا يا "تابو"، لقد نمت كثيراً" استدار ولم يشـــاهد أحـــداً، لـــم يشاهد الخيول، لكن الباب كان مغلقاً، كان عليـــه أن يتخيـــل مكـــان الدواب في الظلام، رغم أنه لم يكن يسمع ركلاتها الضجرة، تخيل أن السائس هو الذي حدثه من خارج الإسطبل، لأن الباب مغلـــق مـــن الداخل، وموصد بالمزلاج، مرة أخرى قال الصوت من خلف ظهره: "تابو"، حقيقة لقد نمت كثيراً، ثلاثة أيام مرت وأنت نائم". فتح عينيـــه عن آخرهما وأجاب : "أنا هنا لأن الحصان ركلني".

لم يكن يعرف في أي ساعة يعيش، الأيام كانت تسير للخلف، كما لو أن أحد قد مرر إسفنجة رطبة على ذلك السبت البعيد، فـــي تلـــك الليلة التي ذهب فيها إلى القرية، نسي القميص الأبيض، ضـــاع مـــن ذاكرته نه ك'ن يملك قبعة خضراء، من القش الأخضـــر، وبنطلونـــاً

غامقاً، وأنه لم يكن يملك حذاء، كان يذهب إلى الميدان ليلة السبت، يجلس في ركن ما، صامتاً، لم يكن يذهب لسماع الموسيقى بل لمشاهدة الزنجي الذي يضع على عينيه عوينات سميكة، مربوطة إلى أذنيه، ويعزف السكسفون أمام أحد المساند الخلفية، كان "تابو" يرى الزنجي لكن الزنجي لم يكن يرى "تابو"، لو أن أحداً شاهد "تابو" وهو ذاهب إلى الميدان في ليالي السبت ليشاهد الزنجي وسأله (ليس الآن لأنه لن يستطيع أن يفهمه) إن كان الزنجي قد شاهده في إحدى المرات، لأجاب بالنفي، بعد ذلك كان "تابو" هو الوحيد الذي يمشط ذيول الخيول.

في أحد أيام السبت، لم يكن في مكانه بين الفرقة الموسيقية، في البداية كان على "تابو" أن يفكر أن الزنجي لن يعود لعزف الألحان الشعبية، رغم وجود المسند في مكانه، ليس بالضبط من أجل هذا، لقد تذكر أنه ذهب متأخراً واعتقد أن الزنجي سيعود السبت التالي. استدار "تابو" إلى الجانب الآخر فشاهد الرجل الذي كان يحادثه، في البداية لم يتعرف عليه في ظلام الإسطبل. كان الرجل جالساً على نتوء بارز، يتحدث وهو يضرب على ركبتيه. "لقد ركلني حصان" أعاد "تابو" قوله، بعد أن تعرّف على الرجل، قال الرجل "حقيقة"، "الخيول غير موجودة هنا، ونحن ننتظرك في الجوقة" هز "تابو" رأسه، لم يكن قد بدأ التفكير بعد، لكنه تذكر أنه شاهد هذا الرجل في مكانه، الرجل قال إنهم ينتظرون "تابو" في الجوقة، "تابو" لم يفهم، لم يتذكر إن كان الرجل قد قال هذا، لأنه في تلك الأيام كان يمشط ذيول الخيول، كان يحب التسلي ببعض الأغاني، وبعد ذلك يغني ليسلي الطفلة الخرساء، بنفس الأغاني التي كان يغنيها أثناء تمشيط ذيول الخيول، لكن الطفلة الصغيرة كانت في عالم آخر، في عالم الدهليز،

كانت تجلس وعيناها معلقتان على الحائط. لو أن أحداً قال إن "تـــابو" سينضم إلى الجوقة الموسيقية ما أبدى أحد دهشة، لكنه انــدهش الآن قليلاً لأنه لم يفهم، كان متعباً، مخدراً، مستوحشـــاً، قـــال: "أريـــد أن أعرف أن الخيل.." قاطعه الرجل: "لقد قلـــت لـــك إن الخيـــل غيـــر موجودة، فقط تشوقنا إلى صوت مثل صوتك". لـــو اقتـــرب الرجـــل لسمع "تابو"، لكن الألم الذي تركته الحدوة في جبهته لم تجعله يفـــرق بين هذه الانطباعات السيئة، أعاد "تابو" رأسه إلى القش ومكث نائماً.

على الرغم من غياب الزنجي عن الجوقة، إلا إن "تابو" ذهب إلى الميدان مرتين أو ثلاثًا، لعل أحداً يجيبه عـــن ســـؤاله عمـــا حـــدث للزنجي، لكن "تابو" لم يسأل، واصل الحضور إلى أن حل رجل آخر مكان الزنجي، حينئذ أقنع "تابو" نفسه بأن الزنجي لن يعود، بعد ذلـــك انصرف ولم يعد إلى الميدان، عندما استيقظ، اعتقد أنه نـــام برهـــة، فمازالت حدة رائحة الحشائش الرطبة في أنفه، ما يزال في الـــركن، ويواصل الخبط على ساقيه، قال الرجل بصوت هـــادئ وغـــامض: "نحن ننتظرك يا "تابو"، أنت تنام منذ عامين ولا تريـــد أن تســـتيقظ" أعاد "تابو" إغلاق عينيه ، ثم فتحهما، وواصل النظر نحـــو الـــركن، رأى الرجل مرة أخرى، تائهاً، حائراً، بعد ذلك تعرّف عليه.

عندما عرف أصحاب البيت ما فعله "تابو" فـــي الميـــدان ليـــالي السبت، اعتقدوا أن ما قاله عن عدم ذهابه يرجع إلى أنه أصبح يملك موسيقاه في البيت، حدث هذا عندما اشتروا الجرامفون لتسلية الطفلة الصغيرة. وعندما كانت في حاجة إلى شخص ليحرسها فكـــروا فـــي "تابو"، لقد استطاع أن يمضي معها طول اليوم تقريباً، فقد كان يظـــل معها الوقت الذي لم يكن يقضيه مع الخيول، كانت الصـــغيرة تبقـــى جالسة تستمع إلى الألحان الموســـيقية، فـــي مـــرات عديـــدة كانـــت

الموسيقى مسموعة، كانت الصغيرة تهبط من مكانها وتظل ناظرة إلى الحائط ولعابها يسيل، تزحف إلى غرفة الطعام، كان "تابو" يرفع إبرة الجهاز ويبدأ في الغناء. في البداية عندما جاء إلى البيت سألناه عن عمله، قال إنه يغني، لكن هذا لم يكن مقبولاً من أحد ، لأننا كنا في حاجة إلى صبي يمشط الخيل. لبث "تابو" هادئاً لكنه واصل الغناء، كما لو كنا قد قبلناه من أجل الغناء. حتى تمشيط الخيول فلم يكن خارج هذه التسلية التي يقوم بها، كان يؤدى عمله بهمة كبيرة، واستمر في ذلك لأكثر من عام كامل، حتى تعوّدنا على فكرة أن الصغيرة لا تستطيع السير، ولا التعرف على أحد، تركنا الصغيرة كأنها ميتة، كانت تظل وحيدة تستمع إلى الجرامفون، وتنظر إلى الحائط بلا اهتمام، حتى نرفعها من مكانها ونقودها إلى الغرفة، ورغم الحادث فإن "تابو" واصل اهتمامه وفياً للمواعيد، منتبهاً على الجرامفون، هذا في الأيام التي توقف فيها عن الذهاب إلى الميدان ليالي السبت. في يوم ما، عندما كان الصبي في الإسطبل، كنا نحن في الصالون، شخص ما نطق اسم "تابو" مع الجرامفون، لم نهتم للأمر، لكن عندما سمعنا للمرة الثانية كلمة "تابو" رفعنا رؤوسنا وتساءلنا، قال أحدنا: "لم أشاهد أحداً يدخل". لكن عندما ذهبنا لاستطلاع الأمر لم نجد سوى الصغيرة على الأرض، منحنية أمام الحائط.

عاد "تابو" مبكراً، ونام، بعد السبت الذي ذهب فيه لرؤية الزنجي وبعد مرور ثلاثة أسابيع بعده، في يوم اثنين، بدأ الجرامفون في الغناء بينما كان هو في الإسطبل، لم نهتم بهذا، في البداية، لكن بعد ذلك شاهدنا الزنجي الصغير عائداً يغني وهو يصب الماء للخيول، قلنا له: "من أين أتيت؟" قال: "من الباب . كنت في الإسطبل منذ

منتصف النهار". قلنا: "الجرامفون يغني ألا تسمعه؟ ثم سـأ اه عـن الذي أدار الزنبرك، هز كتفيه وقال: "الصغيرة هي التي تـديره منـذ فترة".

هكذا كانت تمر الأشياء إلى اليوم الذي وجدنا فيه الطباشير ولوح الكتابة في قش الإسطبل، مع حافة حدوة مرصعة من الأمام، وجـدنا "نابو"، رفعناه من كتفيه، فقال: "أنا هنا لأن الحصان ركلنـي". لكـن أحداً لم يهتم بالذي قاله، اهتممنا بالعيون الباردة الميتة، والفم المليء بالرغاوي الخضراء ، لقد أمضى الليلة باكياً، محترقاً بالحمى، يهذي، متحدثاً عن المشط الذي فقده في قش الإسطبل، هذا كان فـي اليـوم الأول، وفى اليوم التالي عندما فتح عينيـه، قـال: "أنـا عطشـان". أحضرنا له الماء فشربه كله في جرعة واحدة، طلب أكثر من كوبين، سألناه ماذا يشعر. قال: "أشعر كما لو كان قد ركلني حصان". واصل الكلام طوال النهار والليل، وفى النهاية جلس على السرير، مشـيراً إلى أعلى بإصبع السبابة، وقال إن ركلة الحصان لم تدعه ينام طوال الليل. منذ أمس لم يعد يشعر بالحمى لكنه واصل الكلام حتى عنـدما وضعوا في فمه منديلاً، بدأ يغنى من خلف المنديل، قائلاً إنـه سـمع بأذنيه تنفس الخيول وهى تبحث عن الماء. عندما أخرجـوا المنـديل لإطعامه شيئًا، استدار نحو الحائط فاعتقدنا أنه نام، فمن المناسب لـه أن ينام قليلاً، لكن عندما استيقظنا لم يكن في السـرير، كـان مقيـد اليدين والقدمين في ركن الغرفة وكان يغني.

عندما تعرَّف "نابو" على الرجل قال له: "أنا لم أشاهدك من قبل". قال الرجل: "أنت كنت تراني أيام السبت في الميدان". قـال "نـابو": "نعم". وأضاف "لكني أعتقد أنني رأيتك وأنت لم ترني". قال الرجـل: "أنا لم أرك أبداً، لكن بعد ذلك عندما انقطعتَ عن الذهاب شعرتُ كما

لو أن أحداً قد انقطع عن مشاهدتي يوم السبت". قال "نابو": "أنت لم تعد بعد ذلك لأنني واصلت الذهاب ثلاثة أو أربعة أسابيع".

ظل الرجل دون حركة يضرب على ركبتيه، قال: "أنا لا أستطيع العودة إلى الميدان رغم إحساسي بأنها القيمة الوحيدة التي خسرتها". تعب "نابو" من المناقشة فهز رأسه وألقاها على قش الإسطبل، وواصل سماع الصوت البارد، المُصرّ، لم يكن هناك وقت ولا حتى لمعرفة ما إذا كان نائماً في سبات عميق مرة ثانية. دائماً يحدث له هذا منذ أن ركله الحصان. ودائماً يُسمع الصوت الذي يقول: "نحن ننتظرك يا "نابو"، ألا توجد طريقة أخرى لقياس الزمن لديك سوى النوم".

مرت أربعة أسابيع منذ أن ترك الزنجي الفرقة الموسيقية، كان "نابو" يمشط ذيل أحد الخيول، لم يكن يفعل ذلك من قبل، ببساطة كان يمشطها وهو يغني، لكن يوم الأربعاء ذهب إلى السوق وشاهد مشطاً، قال: "إن هذا المشط يصلح لتمشيط ذيول الخيول". بعد ذلك كان حادث الحصان الذي ركله، وتركه مخبولاً طوال حياته، عشرة أو خمسة عشر عاماً. شخص ما بالمنزل قال: " كان الأفضل له أن يموت في ذلك اليوم ولا يظل هكذا، لا دواء له سيظل يهذي بقية حياته." ولم يعد أحد يهتم به منذ اليوم الذي وُضع فيه في الحبس، فقط نعرف أنه هناك، محبوس في الغرفة، ومنذ ذلك اليوم لم تعد الصغيرة تدير الجرامفون. لقد حبسناه كما لو كان حصاناً، كما لو كانت الركلة قد أدت به إلى البلادة، ووضعت في صدره كل غباء الخيول الحيواني، وتركناه معزولاً بين أربعة جدران، كما لو كنا قد عزمنا على دفعه إلى الموت حبساً، لم تكن لدينا برودة دماء كافية

لقتله بطريقة أخرى. هكذا مرت أربع عشرة سنة إلى أن كبر أحد الصغار وقال إن لديه شوق لرؤية وجه "تابو"، وفتح الباب.

عاد "تابو" للنظر إلى الرجل مرة أخرى وقال: "لقد ركلني حصان". قال الرجل: "منذ قرون وأنت تقول هذا ومع ذلك مازلنا ننتظرك في الجوقة". عاد "تابو" يهز رأسه، أغرق جبهته في القش، اعتقد أنه تذكر كيف حدثت الأشياء، قال : "كانت تلك المرة الأولى التي أمشط فيها ذيول الخيل." قال الرجل: "نحن أردنا ذلك لإعادتك للغناء في الجوقة." قال "تابو": "ما كان يجب شراء المشط." قال الرجل : "على أي حال أنت وجدته، نحن عرفنا أنك ستجد المشط وأنك ستمشط ذيل حصان." فقال "تابو": "لم أقف أبداً في الخلف." واصل الرجل هادئاً غير مبدياً ضجره: "لكنك وقفت خلف الحصان فركلك، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكي تنضم إلى الجوقة". "الحديث لا يهدأ، يوميّ، متواصل، إلى أن يأتي شخص إلى المنزل ليقول: "هذا الباب لم يُفتح منذ خمسة عشر عاماً." الصغيرة (لم تكن قد كبرت، لقد مر عليها ثلاثون عاماً، وظهر الحزن في الجفون) وكانت جالسة، تنظر إلى الحائط، عندما فتحوا الباب. أدارت وجهها باتجاه الباب متشممة. وعندما أغلقوا الباب عادوا يقولون: "أصبح "تابو" هادئاً، لم يعد يتحرك في الداخل. في يوم ما سيموت، ولن نعرف إلا من رائحته." شخص ما قال: "سنعرف من الطعام فإنه لن يترك تناول الطعام أبداً، هذا أمر جيد، لنغلق عليه الباب ولا تدعوا أحداً يضايقه، الضوء يدخل جيداً من الباب الخلفي". الأشياء الباقية من هذا النوع، الطفلة الصغيرة فقط هي التي واصلت النظر نحو

الباب ، متشممة البخار الذي يتسلل من أحد الشقوق، ظلت هكذا إلى الفجر عندما سمعنا ضجة لصوت معدني في الدهليز، وتذكرنا أنها نفس الضجة التي حدثت منذ خمس عشرة سنة، عندما كان يهتم "تابو" بالجرامفون. استيقظنا أضأنا اللمبة وسمعنا الأنغام الخافتة للأغنية المنسية، الأغنية الحزينة التي كانت قد ماتت في الاسطوانات منذ زمن بعيد، الضجة كانت متواصلة، في كلِ مرة بصوت أعلى إلى أن سمعنا ضربة حادة، في اللحظة التي وصلنا فيها إلى الدهليز، وشعرنا أن الاسطوانة مازالت تواصل الغناء، وشاهدنا الصغيرة في الركن مع الجرامفون تنظر إلى الحائط وفى يدها ذراع التشغيل مرفوعة إلى أعلى، منزوعة من الصندوق الصوتي، لم تتحرك، ظلت الصغيرة هناك ولم تتحرك، ظلت هادئة، متصلبة، ناظرة إلى الحائط، لم ننطق بشيء، ولم نعد إلى الغرفة، تذكرنا أن شخصاً ما كان قد قال لنا إن الصغيرة تجيد إدارة الزنبرك، قررنا أن نبقى ساهرين، نستمع إلى الموسيقى المستهلكة من الاسطوانة التي واصلت الدوران بشطط الذراع المكسورة.

عندما فتحوا الباب في اليوم السابق، شاعت رائحة بقايا حيوية من الداخل، كانت رائحة جسد ميت. الذي فتح الباب صرخ: "تابو"، "تابو." لم يجبه أحد من الداخل، وتحت عقب الباب، كان الطبق فارغاً، ثلاث مرات في اليوم يعود الطبق فارغاً، لهذا كنا نعرف أن "تابو" مازال حيا، لا شيء أكثر من هذا.

لا توجد حركة في الداخل ولا غناء، هذا ما كان يجب أن يحدث بعد أن أغلقوا الباب عندما قال "تابو" للرجل: "لا أستطيع الذهاب إلى الجوقة" سأله الرجل: "لماذا؟" قال "تابو": "ليس لدي حذاء". رفع

الرجل قدميه قال: "هذا ليس بذي أهمية، لا أحد هنا يستخدم الأحذية". شاهد "تابو" باطن قدمي الرجل المتحجرتين، مرفوعة وقال: " أنا هنا من زمن بعيد"، "منذ دقيقة فقط ركلني حصان سأضع قليلا من الماء على رأسه، وسأدفعه للتنزه قليلاً". قال الرجل: "الخيول ليست في حاجة إليك، الخيول غير موجودة الآن، أنت يجب أن تأتي معنا". قال "تابو": "الخيول يجب أن تكون هنا" انتصب قليلاً، دفن يديه في القش قائلاً: "المشط كان هنا" قال الرجل: "الإسطبل مغلق منذ خمسة عشر عاماً وأصبح مليئاً بالحطام في يوم واحد. لن أتحرك من هنا قبل أن أجد المشط.".

في اليوم التالي، بعد أن عادوا للتأكد من إغلاق الباب، عادوا بعد سماع حركة عسيرة في الداخل، لم يتحرك أحد بعد، ذُهلوا عندما سمعوا أصوات الصرير الأولى للباب الذي بدأ في السقوط، مدفوعاً بقوة هائلة، ندت من الداخل أصوات نحيب حيوان محاصر، في النهاية ارتفعت طقطقة مفصلات الباب الصدئة وهى تتحطم، عندها عاد "تابو" يهز رأسه قائلاً: "لن أذهب إلى الجوقة ما لم أجد المشط سأظل هنا". حفر في القش، مزقه، خطط الأرض، إلى أن قال الرجل: "حسناً يا "تابو" أنا أعتقد أن أحداً لن يستطيع إيقافك".

بعد ذلك انهار الباب ، والرفض الحيواني الهائل، بالجرح الخشن المطبوع على الجبهة (على الرغم من مرور كل هذه السنوات) هبط متعجلاً، قفز فوق الأثاث، تعثر في الأشياء، متوعداً بقبضتيه المرفوعتين، اللتين كانتا تحملان ذراع الجرامفون المربوطة منذ سنوات مضت، (عندما كان صبياً أسود يحرس الخيول) كان يصرخ في الممرات ، ثم اندفع مع الرجل كالعاصفة المدمرة، (قبل أن يصل إلى الفناء) الصغيرة التي بقيت جالسة، تذكرت كلمة واحدة عندما

شاهدت القوة السوداء محررة من السلاسل، كان قد وصل إلى الفناء، (قبل أن يجد الإسطبل) شوهد مع الرجل يحملان معاً مرآة الـدهليز، لكنه لم ينتبه إلى الصغيرة، لكنه لم ينتبه إلى الصغيرة ولا إلى بقايـا الجرامفون، كان نقياً كوجه الشمس، وعيناه كانتا مغلقتين عميـاء لا تريان، اندفع بلا هدف لكن لم تمح مـن غريزتـه اتجاهـات بـاب الإسطبل، بحث عنه، تاركاً خلفه الفاجعة ، التفسخ، التشوش، كثـور معصوب العينين في حجرة مليئة بالأضواء، إلى أن وصل إلى الفناء الخلفي، (لم يجد الإسطبل بعد) حفر الأرض بنفس الهياج الذي حمـل به المرآة، وربما فكر في حفر القش معتقداً أن ذلك سيعيده مزروعـاً من جديد، وقبل أن يصل تماماً إلى باب الإسطبل (الآن أكثر قوة من قوته المضطربة) دفع الباب وسقط في الداخل على وجهه، ربما كان يحتضر، لكنه كان لا يزال مكسواً بهذه الوحشية الحيوانية التي كانت منذ نصف ثانية لا تصل إلـى سـمع الطفلـة التـي رفعـت ذراع الجرامفون، عندما شاهدته يمر، تذكرت اللعاب، ولكنها كانت سـاكنة بلا حركة، ولم تحرك الذراع في الهواء، تذكرت الكلمة الوحيدة التي تعلمت قولها في حياتها، وصرخت من الدهليز: "تابو" ، "تابو"...".

رجل عجوز جداً بأجنحة ضخمة

في اليوم الثالث من سقوط الأمطار، كانوا قد قتلوا في البيت، الكثير من الكابوريا، وكان على "بيلايو" أن يعبر الفناء الموحل، ليلقي بها في البحر، فيما قضى الطفل المولود حديثاً، الليل محموماً، وكان من المعتقد أن هذه الحمى نتيجة للوباء. كانت الدنيا تبدو حزينة منذ يوم الثلاثاء، والسماء تُعانق البحر في اللون الرمادي، وتلمع رمال الشاطيء تحت شمس مارس كتراب مشتعل، فتبدو كحساء من الوحل والمحار المتعفن، كان الضوء في منتصف النهار أليفاً جداً، وعندما عاد "بيلايو"، في طريقه إلى البيت، بعد أن ألقى بالكابوريا، بذل جهداً كبيراً ليرى ذلك الشيء، الذي كان يتحرك ويتأوه في آخر الفناء، وكان عليه أن يقترب كثيراً ليكتشف أن ذلك الشيء كان رجلاً عجوزاً، مكوماً، وفمه غارق في الوحل. ورغم جهوده التي كان يبذلها، إلا أنه لم يكن قادراً على الوقوف، لأن جناحيه الكبيرين، كانا يعوقانه.

أصاب "بيلايو" الفزع من هذا الكابوس، فركض بحثاً عن "أليسيندا"، زوجته، التي كانت تضع الكمّادات على جبهة الطفل المريض، وقادها إلى نهاية الفناء، فشاهدا معاً ذلك الجسد المُلقى في ذهول وصمت، لم يكن على الجسد سوى القليل من المزق البالية، التي بدت كنسالات كالحة اللون على رأسه الأجرد، وفي فمه قليل من الأسنان، وكانت حالته السيئة قد جردته من كل هيبته، أما أجنحته الدجاجية الضخمة، فقد كانت قذرة ونصف خالية من الريش، وتبدو كما لو أنها غُرست في الوحل إلى الأبد، راقباه طويلاً وباهتمام شديد، إلا أن "بيلايو" و"أليسيندا" سرعان ما استعادا رباطة جأشهما، وانتهيا

إلى التآلف مع وجوده، وتجرآ على الحديث معه، فأجابهما بلهجة غير مفهومة، لكنها تنم عن صوت بحـــار لطيـــف، وهـــذا مـــا جعلهمـــا يتغاضيان عن وجود تلك الأجنحة غير المناسبة، واستنتجا بحسن نية أنه غريق، وحيد، نجا من إحدى الســفن الأجنبيــة التــي حطمتهــا العاصفة. إلا أنهما استدعيا جارتهما التي تعرف أشياء كثيـــرة، عـــن الحياة، والموت، لتتفحصه، وما أن ألقت نظرة سريعة، حتى اكتشفت الخطأ الذي وقعا فيه، وقالت لهما:

- إنه ملاك... مؤكد أنه جاء من أجل الطفل، إلا أن المسكين كـــان عجوزاً جداً فصرعته الأمطار.

في اليوم التالي كان كل الناس، يعرفون أن فـــي بيـــت "بيلايـــو"، ملاكاً أسيراً من لحم ودمّ، وعلى خلاف رأي الجارة العرافـــة، التـــي كانت ترى أن ملائكة هذا الزمان ليسوا سوى من تبقوا أحياء، ونجوا من مؤامرة سماوية، فإنه لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لقتله ضـــرباً بالعصي. وظل "بيلايو" يراقبه طوال المساء من نافذة المطبخ، كـــان مسلحاً بالهراوة التي يمارس بها عمله كحارس في البلدية. وقبـــل أن يخلد إلى النوم، أخرجه، وجرجره في الوحل، وحبسه مع الدجاج، في الحظيرة التي تحيط بها الأسلاك، في منتصف الليل، عنـــدما توقـــف المطر كان "بيلايو" و"أليسيندا" مستمرين في قتل الكابوريا. بعد قليـــل استيقظ الطفل، معافى من الحمى، ولديه رغبة في تنـــاول الطعـــام، عندئذ شعرا بالشهامة، وقررا أن يضعا الملاك على طـــوف، مـــزود بماء حلو، وطعام يكفيه لثلاثة أيام، وتركه لمواجهة قدره في أعـــالي البحار. لكن عندما خرجا إلى الفناء، مع بزوغ أضواء النهار الأولى، وجدا جميع سكان المنطقة أمام حظيرة الدجاج، يداعبون الملاك بـــلا

خوف، ويلقون إليه بالأطعمة عبر فتحات الأسلاك، كما لو كان حيوان سيرك، وليس مخلوقاً غير طبيعي.

وصل الأب "جونثاجا" قبل السابعة صباحاً، وقد أفزعه الخبر المزعج. في تلك الساعة، كان هناك العديد من الفضوليين، أقل إزعاجاً من أولئك الذين حضروا مبكراً، وناقشوا كل أنواع الفرضيات حول مستقبل ذلك الأسير، البسطاء منهم، اعتقدوا أنه سوف يتم ترسيمه رئيساً للعالم، آخرون من ذوى الأحاسيس الشحيحة، افترضوا أنه سوف يتم ترقيته إلى درجة جنرال، بخمس نجوم، ليكسب جميع الحروب، أما بعض ذوي البصيرة النافذة، فقد توقعوا أن يتم الحفاظ عليه لاستعماله في إنجاب ذرية في الأرض، من الرجال المحنكين، ذوي الأجنحة، ليتولوا مهمة حكم الكون. إلا أن الأب "جونثاجا" الذي كان حطّاباً، قبل أن يتم ترسيمه قساً، ألقى نظرة عبر الأسلاك، وراجع كتاب أصول الدين للحظات، ثم طلب أن يفتحوا له الباب، ليتفحص عن قرب، ذلك الذكر المسكين، الذي كان يبدو كدجاجة ضخمة، عاجزة، ترقد بين الدجاج الذاهل. كان العجوز مستلقياً في أحد الأركان، يجفف أجنحته المفرودة تحت أشعة الشمس، وتحيط به قشور الفاكهة؛ وبقايا طعام الإفطار التي ألقى بها إليه المبكرون في الحضور، وكان غائباً عما يجري من حوله، ولم يكد يرفع عينية ويهمهم بلهجته شيئاً، حتى رأى الأب "جونثاجا" يدخل الحظيرة، ويلقى عليه تحية الصباح باللاتينية، بدت على القس علامات الشك الأولى، عندما تأكد من أنه لم يفهم لغة الله، ولا يعرف كيف يحيي مبعوثيه، ثم لاحظ بعد ذلك أن مشاهدته عن قرب، تؤكد أنه أقرب إلى الإنسان. كانت له رائحة قذارة لا تحتمل، وباطن الأجنحة مملوء بالطحالب الطفيلية، والريش الكبير أصابته ريح

الأرض بالتلف، ولاشيء من طبيعته البائسة يتطابق مع جلال عظمة الملائكة. غادر القس الحظيرة وحذّر المتطفلين في خطبة قصيرة من أخطار السذاجة. وذكّرهم أن الشيطان لديه عادة سيئة، بلجوئه إلى فنون التنكر الاحتفالية، ليغش المندفعين، وذكّرهم بأنه إذا كانت الأجنحة لا تُعتبر الفارق الجوهري بين الباشق والطائرة، فإنه لا يمكن اتخاذها سبيلاً للتعرف على الملائكة. لكنه وعد بكتابة رسالة إلى الأسقف، ليكتب هذا بدوره رسالة أخرى لرئيسه، وليكتب ذاك رسالة أخرى إلى صاحب القداسة البابا، حتى يأتي الحكم النهائي من الجهات العليا.

تحذير القس لم يجد آذاناً صاغية، فانتشر خبر الملاك الأسير بسرعة، لدرجة أنه في ساعات قليلة، تحوّل الفناء إلى سوق يموج بالزوار، مما تطلب معه إحضار قوات الأمن، ذات الخوذات، لإبعاد الضجة التي كانت على وشك أن تهدم البيت، أما "أليسيندا"، التي أعياها إزالة قاذورات السوق، فقد طرأت على ذهنها فكرة طيبة، بإحاطة الفناء بسور، وتحصيل خمس سنتات كرسم دخول، لمشاهدة الملاك.

جاء الفضوليون من أقصى البلاد، وجاءت فرقة متجولة، تضم لاعب أكروبات، طائر طار عدة مرات فوق رؤوس الجمع، ولكن أحداً لم يعره انتباهاً، لأن أجنحته لم تكن لملاك، بل أجنحة وطواط. وجاء المرضى من أقصى الكاريبي، بحثاً عن الشفاء: امرأة مسكينة كانت تُحصي منذ طفولتها عدد دقات قلبها، ولم تعد تعرف الأرقام التي وصلتها، ورجل جامايكي لا يستطيع النوم، لأن ضوضاء النجوم تقلقه، ومصاب بداء السير أثناء النوم، كان يستيقظ أثناء الليل ليهدم ما فعله أثناء يقظته، وغيرهم كثيرون لديهم أمراض أقل خطورة. في

وسط كل هذه الفوضى التي كانت تزلزل الأرض، كان "بيلايو" و"أليسيندا" سعيدين بالتعب، لأنهما ملآ الغرف بالأموال في أقل من أسبوع، ولا يزال طابور الحجيج الذين ينتظرون دورهم للدخول، يصل إلى الطرف الآخر من الأفق.

كان الملاك، هو الوحيد الذي لا يشارك في هذا الحدث، كان يمضي الوقت بحثاً عن أنسب مكان في عشه المؤقت، ليحتمي من حرارة جحيم قناديل الزيت، وشموع النذور التي يقربونها من الأسلاك. حاولوا في البداية أن يقدموا له زجاجات الكافور، كطعام لأن الجارة العرافة قالت إنه الطعام الخاص بالملائكة. إلا أنه كان لا يعيرها اهتماماً، كما فعل مع أوراق الأغذية التي كانوا يلقونها إليه، ولم يُعرف على وجه التحديد، إن كان ذلك لأنه ملاك أم لأنه عجوز، ثم انتهى إلى الإقبال على أكل سلاطة الباذنجان، ويبدو أن فضيلته الوحيدة غير الطبيعية هي الصبر. خاصة في الفترة الأولى، عندما كانت الدجاجات تنقره، بحثاً عن الفطريات الطفيلية النابتة على أجنحته، وكان العجزة ينزعون ريشه ليلمسوا بها عاهاتهم، حتى الأناس الأكثر رحمة به، كانوا يقذفونه بالحجارة، محاولين إجباره على الوقوف ليروا جسده كاملا. المرة الوحيدة التي تمكنوا فيها من إثارته، كانت عندما أحرقوا ضلوعه بقضيب من الحديد الساخن، من ذلك النوع الذي يضعون به علامات على الثيران، لأنه كان قد أمضى ساعات طوال دون حركة، فاعتقدوا أنه ميت. استيقظ فزعاً، هاذياً في لغة مبهمة، والدموع تلمع في عينيه، وخبط بأجنحته خبطتين تسببتا في إحداث دوامة هوائية أثارت الروث والتراب، وأحدثتا ريحاً من الفزع، لا يشبهها شيء في هذا العالم، ورغم أن العديدين اعتقدوا أن ثورته لم تكن غضباً بل من شدة الألم، إلا إنه

منذ ذلك الحين، احترسوا ألا يزعجوه، لأن الأغلبية فهمت أن سلبيته ليست صادرة عن بطل معتزل، بل صادرة عن بركان ساكن.

واجه الأب "جونثاجا" طيش الجموع الحاشدة بحل مستلهم من المكان ذاته، إلى أن يصله حكم نهائي حول طبيعة الأسير. إلا أن بريد روما كان قد افتقد إلى حساسية السرعة. فقد أضاعوا الوقت في التحري عما إذا كان الملاك له حبل سري، أم أن لهجته لها علاقة باللغة الآرامية، أم إن كان بإمكانه أن يمر عدة مرات على رأس دبوس صغير، أم أنه ببساطة، ليس إلا بحاراً نرويجياً مجنحاً. تلك الرسائل الرصينة، كان يمكنها أن تذهب وتعود حتى نهاية قرون من الزمان، ما لم يقع حدث إلهي يضع حداً لمحن القس.

حدث أنه في تلك الأيام، من بين الألعاب الكثيرة لأعياد الكاريبي المتنقلة، أن جاء إلى القرية استعراض حزين، لامرأة كانت قد تحولت إلى عنكبوت لعصيانها أوامر أبويها، وتذكرة الدخول لمشاهدتها لم تكن فقط تكلف أقل من تذكرة الدخول لرؤية الملاك، بل إنهم كانوا يسمحون بأن يقوم الرواد، بتوجيه جميع أنواع الأسئلة إليها، ولمسها من جميع الجوانب، حتى لا يكون لدى أحد شك حول حقيقة مأساتها. كانت عبارة عن جدث مرعب، في حجم الجمجمة، ولها رأس فتاة حزينة، إلا أن الأكثر جذباً إليها، لم تكن صورتها المبالغ فيها، بل لهجتها الجادة، التي كانت تقص بها تفاصيل سوء طالعها: هربت من بيت أسرتها عندما كانت في سن الطفولة تقريباً، لتذهب إلى حفل راقص، وعند عودتها عبر الغابة، بعد أن كانت قد رقصت طوال الليل دون إذن، هبت عاصفة مرعبة مزقت السماء إلى نصفين، ومن هذا الشق خرج برق كبريتي حولها إلى عنكبوت. كان غذاؤها الوحيد، كرات من اللحم المفروم الذي تقذفه في فمها الأرواح

الطيبة. إن مثل هذا الاستعراض المشحون بالعديد من الحقائق الإنسانية، والعقاب المخيف، كان يمكنه أن يهزم ما يقدمه مشهد الملاك الساكن الذي يكاد لا يهتم بالنظر إلى البشر. إضافة إلى أن المعجزات القليلة التي تُنسب إلى الملاك، تدل على تشوش عقلي حقيقي، مثلاً ذلك الأعمى الذي لم يستعد بصره، ولكن نبتت له أسنان جديدة، والمشلول الذي لم يتمكن من السباحة، إلا أنه كان على وشك أن يربح اليانصيب، وحكاية الأبرص الذي نبتت في جروحه زهور عباد الشمس. تلك المعجزات القليلة، لم تكن سوى نوع من الحكايات الساخرة التي تهدف إلى تزجية الوقت، كل تلك الحكايات كانت قد أساءت إلى سمعة الملاك، ثم جاءت المرأة التي تحولت إلى عنكبوت، لتقضي على سمعته تماماً. وهكذا فقد شُفي الأب "جونثاجا" من أرقه إلى الأبد، وعاد فناء "بيلايو" إلى عزلته كما كان في ذلك الزمن، الذي هطلت فيه الأمطار ثلاثة أيام متوالية، وكانت الكابوريا تتجول في جميع غرف النوم.

لم يتحسر أصحاب البيت على أي شيء، فقد بنوا بالأموال التي حصلوا عليها داراً من طابقين، بشرفات، وحدائق، ولها عتبات مرتفعة جداً، حتى لا تدخل الكابوريا في الشتاء، وعلى شبابيكها قضبان حديدية، تمنع الملائكة من التسلل إليها، وأقام "بيلايو" أيضاً، بالقرب من القرية، مزرعة لتربية الأرانب، وترك إلى الأبد عمله السابق كحارس في البلدية، واشترت "أليسيندا" أحذية مكسوة بقماش الستان، ولها كعوب عالية، والكثير من الفساتين من الحرير البراق، من تلك التي كانت ترتديها، في تلك الأيام، النساء الطموحات أيام الآحاد، كانت الحظيرة المكان الوحيد الذي لم يحظ بأية عناية تذكر. وإذا كانوا قد غسلوها في بعض الأحيان، بمطهر، وبخّروها بدموع

الصبر، فإن ذلك لم يكن تكريماً للملاك، بل لمنع انتشـار الطـاعون الذي كان يسري في تلك الأيام، كشبح يتنقل من مكـان إلـى آخـر، وكان البيت القديم يبدو متهالكا. عندما بدأ الطفل يتعلم المشي كـانوا يحترسون ألا يقترب من الحظيرة. بعد ذلك بدأوا في نسيان الخوف، والاعتياد على وجود ذلك الحيوان، وقبل أن يبدّل الطفل أسنانه، دخل ليلعب في الحظيرة، التي كانت أسلاكها المتهالكـة، تتسـاقط قطعـاً قطعاً، والملاك لم يكن متجافياً معه، كما كان يفعل مع الآخرين، لكنه كان يتحمل الإهانات، ككلب فقد الأمل، فأصيب كلاهما بداء الحصبة في نفس الوقت، والطبيب الذي عالج الطفل، لم يستطع مقاومة إغراء فحص الملاك، فوجد شهيقاً عظيماً في القلب، وأصواتاً مزعجة جـداً في الكلى، مما يتعذر معه أن يكون صاحبهما على قيد الحياة. ومـع ذلك فإن الذي أدهشه هو طبيعية أجنحته، فقـد كانـا طبيعيـين فـي تركيبهما العضوي، لهذا الجسد البشري، لدرجة أنه لم يفهم لمـاذا لا يوجد مثلهما في أجساد البشر الآخرين.

عندما ذهب الطفل إلى المدرسة، كانت الشمس والأمطار قد خربتا الحظيرة، منذ فترة طويلة. وكان الملاك يزحف من هنا إلـى هنـاك كمحتضر، لا صاحب له. كانوا يخرجونه من غرفة النـوم، ضـرباً بالمقشات، وبعد دقيقة واحدة، يجدونه في المطبخ، كان يبدو كما لـو كان يوجد في أماكن متعددة في وقت واحد، حتى أنهم اعتقدوا أنـه ينشطر، ويكرر نفسه في كل البيت، وكانت "أليسيندا" الحانقة، تصرخ بعصبية، بأنها مأساة أن تعيش في ذلك الجحيم الغاص بالملائكة. لـم يكن الملاك يكاد يأكل، وكانت عيناه اللتـان تشـبهان عينـيْ بـائع عاديات، أصابهما الوهن، فيسير متعثراً في الأعمدة، ولم يعـد فـي أجنحته سوى القليل من الزغب المنحول. غطاه "بيلايـو" ببطانيـة،

وأشفق عليه، فتركه ينام تحت السقيفة، وعندها انتبهوا إلى أنه كـان يُمضي الليل هاذياً بكلمات غير مفهومة، كنرويجي عجوز. وكانـت تلك واحدة من المرات القليلة التي أصـيبوا فيهـا بالانزعـاج، فقـد اعتقدوا أنه على وشك الموت، ولم تتمكن الجارة العرافة من أن تقول لهم، ماذا يفعلون بالملائكة الموتى.

مع ذلك، فإنه لم يتمكن فقط من التغلب على أسوأ شتاء مر به، بل بدت عليه العافية مع سطوع شمس الأيام الأولى. ظل سـاكناً فـي أقصى ركن من الفناء، أياماً طوالاً، حيث لا يستطع أن يـراه أحـد، ومع بدايات شهر سبتمبر، بدأ ينبت في أجنحته ريش كبيـر، لطـائر ضخم عجوز، كان يبدو كعلامات الشيخوخة، إلا أنه ربما كان يعرف أسباب تلك التغيرات، لأنه كان حريصاً على ألا يلحظه أي إنسـان، وألا يسمع أي شخص أغاني البحارة التي كان يغنيها أحيانـاً تحـت أضواء النجوم. وفي صباح أحد الأيام كانت "أليسيندا" تقطع حلقـات من البصل، لإعداد طعام الغداء، فدخلت المطبخ ريح، تبدو كما لـو كانت تهب من أعالي البحار. حينئذ أطلت من النافذة وفاجأت الملاك في محاولاته الأولى للطيران. كانت محاولات متعثـرة جـداً، إلـى درجة أنه فتح بأظافره مجرى كالمحراث بين الخضـروات، وكـان على وشك أن يهدم السقيفة بضرباته التي انزلقت في الضـوء، ولـم تجد فرصة في الهواء، إلا أنه استطاع أن يحقـق ارتفاعـاً. عنـدها زفرت "أليسيندا" زفرة ارتياح، من أجلها ومن أجله، وعندما شـاهدته يمرق أعلى آخر البيوت وهو يضرب الهواء بضربات نسر عجـوز، ظلت تتابعه حتى انتهت من تقطيع البصل، وظلت تتابعـه إلـى أن أصبحت رؤيته غير ممكنة، وعندما أصبح نقطة خياليـة فـي أفـق البحر، شعرت أنها تخلصت من عبء كبير.

الموت بعد الحب

لم يكن قد تبقىِ من الزمن سوى ستة أشهر وأحد عشر يوماً على موت السناتور "اونيسيمو سانشيث" عندما التقى بالمرأة التي حلم بها طوال حياته، تعرّف عليها في "روسال ديل بيري" (حديقة زهور بيري)، وهي قرية متخيلة- في الليل مرفأ لسفن المهربين التي تجوب أعالي البحار، وفي النهار منعطف لا قيمة له في الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا مدى له وبعيد عن كل شيء حتى انه لم يعد يشك احد في إمكانية التأثير في مصير إنسان آخر، حتى اسم القرية مثير للسخرية، الوردة الوحيدة التي كانت هناك قطفها السناتور "أونيسميو سانشيث" في الأمسية نفسها التي تعرّف فيها على "لاورا فارينا".

كانت محطة توقف إجبارية أثناء الحملة الانتخابية التي تجري كل أربع سنوات. وصلت سيارات الركاب الصغيرة، تتبعها شاحنات تحمل هنوداً تم استئجارهم ليكونوا جزءاً من الجماهير التي تحضر للاستماع للخطابات السياسية التي تُلقى. بدأت الموسيقى تعزف قبل الحادية عشرة بقليل وانطلقت الصواريخ النارية، وصلت بعدها السيارة الوزارية الحمراء اللون. كان السناتور "اونيسميو سانشيث" يبتسم وهو جالس داخل السيارة المكيفة، لكن ما أن انفتح الباب حتى ضربته لفحة هواء حارق فغرق قميصه الحريري في بحر من العرق، وشعر لحظتها أنه تقدم في السن عدة سنوات، كان عمره وقتها لا يزيد عن الثانية والأربعين، تخرّج بمرتبة الشرف ليكون

مهندساً للحديد والصلب في "جوتيجا" وكان أكثر الناس حرصاً على القراءة رغم انه لم يقرأ الكثير للمؤلفين الذين يكتبون باللاتينية الذين تُرجمت أعمالهم بشكل رديء، تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء وكان الجميع يعيشون في سعادة، وكان هو أكثرهم سعادة حتى جاءت اللحظة التي قالوا له قبل هذا الموعد بثلاثة أشهر أنه سيموت في أعياد الميلاد المقبلة.

خلال الاستعداد لإلقاء خطابه تمكن السناتور من البقاء ساعة كاملة وحيداً في المنزل الذي أُعد لاستراحته. وقبل أن يستريح وضع في كوب الماء وردة طبيعية تمكن من الحفاظ عليها يانعة وسط الصحراء. تناول غداءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب، أحضرها معه تفادياً لأكل المحمص وهو الطعام الذي كان ينتظره خلال ما تبقى من اليوم. تناول بعد ذلك بعض الأقراص المسكنة قبل الموعد المحدد لتناولها ليسبق بها تأثير الآلام المنتظرة، ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من السرير الشبكي المعلق وتمدد عارياً في ظل الوردة لخمسة عشر دقيقة. خلال تلك اللحظات، حاول جاهداً أن يُبعد فكرة الموت عن ذهنه. لم يكن يعرف أحد أنه سيموت في زمن محدد سوى الأطباء، لأنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يُدخل على حياته أي تغيير، فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

شعر بالسيطرة الكاملة على قواه الذهنية عندما عاد للظهور أمام الجماهير في حوالي الثالثة بعد الظهر وقد أكمل هندامه مرتدياً بنطلوناً من الكتان وقميصاً ملوناً بأشكال الزهور، وكان هادئاً نتيجة تناوله الأقراص المسكنة. إلا أن الموت أثر فيه بشكل أقسى مما تصور. شعر عند صعوده إلى المنصة باحتقار غريب تجاه هؤلاء

الذين تزاحموا لمصافحته، ولم يشعر بالشفقة بهؤلاء الحفاة الـذين لا يحتملون حرارة بلاط هذه الساحة القاحلة كما حدث في مرات سابقة. أسكت التصفيق بإشارة آمرة كأنها تعبر عن حنقه، وأخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وعيناه مثبتتان على البحر الذي كـان يهتـز بفعـل الحرارة. صوته رتيب وعميق كالمياه الساكنة، لكن خطابه الذي كان يحفظه وكرره كثيراً لم يخطر على باله أن يعلن فيه الحقيقة.

بدأ خطابه بشكل غير تقليدي:

- نحن هنا لنهزم الطبيعة، ولن نكون بعد اليـوم لقطـاء الـوطن أو لقطاء الله في مملكة العطش والضياع، ولن نكـون غربـاء علـى أرضنا، سنكون أناساً آخرين أيها السيدات والسادة، سنكون عظماء وسعداء.

كانت هذه هي الصيغة التي تُقال في سيركه الخاص، وفي الوقت الذي كان يتحدث فيه كانت بطانته تقوم بإلقاء عصافير ورقيـة فـي الهواء فتدور حول المنصة المرتفعة وتذهب لتسقط في البحـر. فـي الوقت نفسه يقوم آخرون بإخراج أشجار اصطناعية كديكور المسرح من السيارات وإقامتها خلف الجماهير. وأخيراً قام مساعدوه بتركيب حائط كرتوني به صور بيوت من الطوب الأحمر ونوافـذ زجاجيـة ليغطوا على ملامح الحياة اليومية البائسة.

استمر السناتور في إلقاء خطابه وأطال بـذكر عبـارات باللغـة اللاتينية حتى يوفر الوقت لاكتمال الملهاة، وعـد بـأن يـأتي لهـم بماكينات تصنع المطر، ووحدات متنقلة لتربية الحيوانات المنزليـة، وان يأتي لهم بزيت السعادة الذي يساعد على زيادة نمو البقوليات في الأصص، وكذا زهور البنفسج المعلقة على النوافذ. وعندما أدرك أن

عالمه الخيالي أوشك على الاكتمال أشار بإصبعه إلى رسوم الديكور، وقال:

- سنكون هكذا أيها السيدات والسادة، سنكون هكذا.

نظر الجمهور إلى الخلف فوجد سفينة من عـــابرات المحيطـــات مرسومة وهي تمر خلف البيوت أكثر ارتفاعاً من أعلى البيوت فـــي المدينة المتخيلة. لاحظ السناتور- وحده - أن كثرة التفكيك والتركيب لهذه اللوحة والانتقال بها من مكان إلـــى آخـــر أدى إلـــى إصـــابتها بالتمزق والتلف، وأصبح يعلوها التراب فتبـــدو كئيبـــة مثـــل قريـــة "روسال ديل بيبري".

لأول مرة منذ اثنتي عشر سنة لم يذهب "نيلسون فارينـــا" لتحيـــة السناتور، وفضّل الاستماع إلى الخطاب وهو مستلق علـــى ســـريره تحت وطأة القيلولة تحت سقف تكسوه الخضرة، وهو بيت مبني مـــن الألواح الخشنة، بناه بنفس اليدين اللتين كان يعمل بهمـــا صـــيدلانياً، وهي نفسها التي مزق بهما زوجته الأولى أرباً، كان قد هـــرب مـــن سجن "كايينا" وظهر في "روسال ديل بيبري" قادماً على متن ســـفينة محملة بالببغاوات البرية وترافقه امرأة زنجية جميلة سليطة اللســـان، التقى بها في "باراماريبو" وأنجب منها طفلة، إلا أن المرأة توفيت بعد قليل من الزمن، ولم يكن حظها مثل الأولى التـــي مزقهـــا لتســـميد حديقته، بل دفنها مكتملة الجسد في مقابر القريـــة ووضـــع اســـمها الهولندي الأصل على قبرها. ورثت الابنة عن أمها لـــون بشـــرتها وقامتها وورثت عن الأب عينيه الصفراوين المندهشتين. كانت لهـــذا الأب أسبابه ليعتقد انه يربي أجمل امرأة في الدنيا.

منذ أن تعرّف "نيلسون فارينا" على السناتور "اونيسيمو سانشيث" في أول حملة انتخابية له، وهو يتوسل إليه أن يساعده في الحصـــول

على بطاقة هوية مزيفة تنقذه من أيدي العدالة. كان رد السناتور دائماً رقيقاً وواثقاً بالرفض، لم يستسلم "نيلسون فارينا" مع مرور السنوات وفي كل مرة يرى فيها السناتور يكرر طلبه بطرق شتى. إلا إن الإجابة كانت دائماً واحدة. ولذلك ظل هذه المرة في مكانه بعد أن شعر أنه سيموت في ملجأ القراصنة هذا. عندما سمع التصفيق الختامي للحفل أطل برأسه من فوق السياج فرأى مشهد الملهاة الخلفي: المسامير المدعمة للبيوت والأشجار المرسومة والرجال الذين اختبأوا وهو يدفعون عابرة المحيطات، فبصق غيظاً. وقال:

- حثالة.

قام السناتور بعد الخطاب - كما هي العادة - بالتجول في شوارع القرية سيراً على الأقدام ترافقه الموسيقى والألعاب النارية ويحيط به سكان القرية وهم يقصّون عليه مشاكلهم، ويستمع السناتور إليهم باهتمام ودائماً ما يردد عبارات المواساة دون أن يعدهم بشيء. كانت هناك سيدة تصرخ بصوتها رغم الضجيج وصوت المفرقعات النارية.

قالت:

- لا أطلب الكثير أيها السناتور، لا أطلب غير حمار أحمل عليه الماء من بئر "اوركادو".

نظر السناتور إلى الأطفال السقماء الستة وسأل:

- ماذا يعمل زوجك.

أجابت المرأة بمرح:

- ذهب بحثاً عن رزقه في جزيرة "أوربا"، وما عثر عليه هناك كان امرأة من تلك اللاتي يضعن الماس في أسنانهن.

أثارت هذه الإجابة عاصفة من الضحك، فقال السناتور:

- حسناً، سيكون لك حمارك.

بعد قليل ذهب أحد مساعديه إلى بيت المرأة ومعه الحمار الذي كُتب على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى لا ينسى أحد انه هدية من السناتور.

في المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات وإشارات منها منح ملعقة صغيرة لأحد المرضى كان قد خرج من بيته وهو على سريره لمشاهدة السناتور. وعلى ناصية الشارع الأخيرة رأى "نيلسون فارينا" بين ألواح السياج وبدا له ذابلاً فحياه تحية فاترة.

- كيف حالك؟.

تحرك "نيلسون فارينا" في سريره المعلق ثم تركه غارقاً في نظراته الحزينة، وقال:

- أنا، أنتم تعرفون...

خرجت ابنته إلى الفناء عندما سمعت التحية، كانت ترتدي جلباباً بالياً من جلابيب الفلاحات، وشعرها ملفوف بكرات متعددة الألوان، ووجهها مدهون لحمايته من أشعة الشمس، ورغم أنها كانت على هذا الوضع إلا إنه كان من الممكن تصور إنه ليس هناك من هي أجمل منها في هذه الدنيا. وقف السناتور جامداً، وتنهد بدهشة:

- عجباً، تبارك الله الخالق!.

قام "نيلسون فارينا" في تلك الليلة بتزيين ابنته بأفضل ما لديها من ملابس وأرسلها إلى السناتور. طلب منها اثنان من الحرس المسلحين الجالسين على الباب تحت وطأة القيلولة أن تنتظر على الكرسي الوحيد الموجود في الممر.

كان السناتور مجتمعاً في الغرفة المجاورة مع كبار سكان القرية الذين جمعهم ليحكي لهم بعض الأسرار التي لا يبوح بها في

خطاباته. كان الحاضرون يشبهون كثيراً هؤلاء الذين يحضرون هذه الجلسات من أبناء القرى الصحراوية إلى درجة أن السـناتور كـان يشعر بالملل الشديد من الجلسة نفسها التي تتكرر كـل ليلـة. كـان قميصه يذوب من العرق وحاول أن يخفف القميص وهو على جسـده بتعريض نفسه للهواء الساخن الذي تحركه المروحة الكهربائية التـي ينتشر طنينها في أنحاء الحجرة.

قال:

- بالطبع نحن لا نأكل عصافير ورقية، تعرفون انه في اليوم الـذي توجد فيه أشجار وزهور وحظيرة للتيوس، وفي اليوم الذي تختفـي فيه الديدان والحشرات من الآبار، لن يكون لنا وجود نحن جميعـا هنا، ألا أقول لكم الحقيقة؟.

لم يُجب أحد، في الوقت الذي أخذ يتحدث فيه جذب ورقـة مـن أوراق النتيجة الحائطية لهذا العام وصنع منها فراشة وطيّرهـا دون اكتراث باتجاه الهواء الذي تدفع به المروحة، فطارت الفراشـة فـي أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب. ظل السـناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت.

قال:

- عندها، ليس من الضروري أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونـه جيدا: إن إعادة انتخابي هو أفضل شيء بالنسبة لكم أكثر مني، فأنا كما ترون مُتعب ومُثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم.

شاهدت "لاورا فارينا" الفراشة الورقية تخرج ولـم يرهـا أحـد غيرها، لأن الحارسين الموجودين في الممر كان قد غرقا في النـوم وهما جالسان على كراسيهما محتضنين سلاحيهما.

بعد عدة دورات تفككت الفراشة الضخمة ثم اصطدمت بالحـائط والتصقت به. حاولت "لاورا فارينا" نزعها بأظافرها، كان أحد الجنود قد استيقظ على صوت التصفيق في الحجرة ولاحظ محاولتهـا غيـر

المجدية، وقال شبه نائم:
- لا يمكن نزعها، إنها مرسومة على الحائط.
عادت "لاورا فارينا" إلى الجلوس من جديد عندما بدأ الحاضرون في مغادرة الاجتماع. وظل السناتور على باب الحجرة ويده على المزلاج، ولم ينتبه إلى وجود "فارينا" إلا عندما خلا الممر من الناس.
- ماذا تفعلين هنا؟.
قالت:
- جئت تنفيذاً لأوامر أبي.
فهم السناتور، نظر باتجاه الحارسين المتناومين ثم تأمل "لاورا فارينا" وجمالها الجذاب الذي تجاوز حدود آلامه، وقرر حينها أن يتخذ الموت قراره نيابة عنه.
قال لها:
- ادخلي.
فغرت "لاورا فارينا" فمها وهي تقف على باب الحجرة: كانت هناك الآلاف من الأوراق النقدية تطير في هواء الحجرة وكأنها فراشات، أوقف السناتور المروحة فسقطت الأوراق متناثرة فوق محتويات الغرفة.
قال مبتسماً:
- ها أنتِ ترين أن القذارة أيضاً تطير.
جلستْ "لاورا فارينا" كما لو كانت تجلس على مقعد مدرسي. بشرتها ناعمة ومشدودة ولونها كلون البترول، وشعرها مصفف على هيئة عرف. نظراتها أكثر شفافية من النور. تابع السناتور خط بصرها إلى أن وصل إلى الوردة التي خبا بريقها بسبب النترون.
- إنها وردة.
قالت وقد علت وجهها ملامح الدهشة:
- نعم، شاهدت مثلها في "ريو اتشا".

جلس السناتور على سرير وأخذ يتحدث عن الوردة بينما كـان يفك أزرار قميصه، وبرزت ضلوعه التي يمكن تخيـل القلـب مـن خلفها، كان هناك وشم يرسم قلباً يخترقه سهم. ألقى بالقميص المبلـل على الأرض وطلب من "لاورا فارينا" أن تساعده على خلع الحـذاء ذي الرقبة المرتفعة. جلست على ركبتيها أمام السـرير بينمـا ظـل السناتور يتأملها مفكراً، فيما كانت تفك رباط الحذاء كان يتسـاءل أي منهما سيكون الفأل السيئ للآخر.

- لا تزالين صغيرة.

قالت:

- لا تظن ذلك، سأكمل التاسعة عشرة في ابريل.

أبدى السناتور اهتماماً.

- في أي يوم؟.

قالت:

- الحادي عشر.

شعر السناتور بالتحسن فقال مبتسماً:

- كلانا من برج "الجدي"، إنه برِج العزلة والتوحد.

لم تبد "لاورا فارينا" اهتماما بما يقول حيث كانت مشغولة بفـك أربطة الحذاء. كما إن السناتور نفسه لم يكن يدري بما يجب أن يفعله مع "لاروا فارينا" فهو معتاد على أنواع الحب الطارئ، كما إنه كـان واثقاً من أن ذلك النوع من الحب مؤسس على عدم التكافؤ. وحتـى يجد لديه متسعاً من الوقت ضـغط علـى "لاورا فارينـا" بركبتيـه واحتضن خصرها وألقى بظهره على السرير. عندها أدرك أنهـا لا ترتدي ملابس داخلية. فقد ندت عن جسدها رائحة غامضة لحيـوان بري لكن قلبها كان يرتعد خوفاً وانتشر على بشرتها عرق بارد.

تنهد:

- لا أحد يريدنا.

أرادت "لاورا فارينا" أن تقول شيئاً لكن الهواء لم يسعفها إلا للتنفس. جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الضوء وبقي المكان في ظل الوردة، تركت هي نفسها تحت رحمة قدرها. قام السناتور بتحسسها في بطء وبحث عنها بيده وما أن لمسها حتى اصطدمت يده بقطعة حديدية في المكان الذي اعتقد أنها فيه.

- ماذا تحملين؟.

قالت:

- إنه قفل.

قال السناتور بغضب متسائلاً عن ذلك الشيء الذي يعرفه جيداً:

- يا له من تناقض!، وأين المفتاح؟.

تنهدت "لاورا فارينا" بارتياح وأجابت:

- إنه مع أبي، لقد قال لي أن أغلقه، وعلى حضرتك أن ترسل في البحث عنه وان ترسل أيضاً وعداً مكتوباً بأنك ستساعده في حل مشكلته.

انتابت السناتور حالة من التوتر، وغمغم باستياء:

- يا له من "ديوث فرنسي".

ثم أغمض عينيه ليسترخي وألقى بنفسه في الظلام. تذكر:

- أنت أو غيرك ستموتون خلال وقت قصير، وبعد ذلك لن يتبقى منكم أي شيء حتى الاسم.

انتظر لحظة حتى تنتهي الرعشة، وسألها:

- اخبريني، ماذا تعرفين عني؟.

- هل تريد الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؟.

- نعم الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؟.

تجرأت "لاورا فارينا":

- حسناً، إنهم يقولون أنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف عنهم.

لم يبد السناتور أي علامة على الغضب، صمت طويلاً وعيناه مغلقتان، وعندما فتحهما كان يبدو كما لو عاد من غرائزه الخفية. وقال معترفاً:

- عجباً، قولي للديوث أبيك إنني سأساعده في حل مشكلته.

قالت "لاورا فارينا":

- إذا أردتَ، سأذهب بنفسي للبحث عن المفتاح؟.

أمسك بها السناتور، وقال:

- عليكِ بنسيان المفتاح، وتمددي معي لبعض الوقت، جميل أن يكون هناك رفيق عندما يشعر الإنسان بالوحدة.

تركته ينام على كتفها وعيناه متطلعتان إلى الوردة فاحتضنها السناتور وامسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذي تفوح منه رائحة حيوان بري واستسلم للرعب. بعد ستة أشهر وأحد عشر يوماً سيموت على هذا الوضع نفسه، وقد بدأت تطارده فضيحة "لاورا فارينا"، وسيبكي غيظاً من موته وحيداً بدونها.



ليــلة الكــراون

كنا نحن الثلاثة نجلس حول المائدة، عندما وضع أحدهم عملة معدنية في ثقب ماكينة الموسيقى، فانبعث مرة أخرى نغم الأسطوانة التي كانت تدور طوال الليل، ولم نجد الوقت لنفكر فيما حدث بعد ذلك، لقد وقع قبل أن نتذكر أين كنا، وقبل أن نتعرف على الاتجاه الذي حدّق فيه، مَدَّ أحدنا يده فوق الطاولة. (لم نشاهد اليد ولكنا سمعنا حركتها)، ارتطمت بكوب زجاجي، فسكن بكلتا يديه على السطح الصلب، حينئذ بحث ثلاثتنا عن المكان فوجدنا أنفسنا هناك، في مفاصل الأصابع الثلاثين المكدَّسة على الطاولة، قال أحدنا:

– هيا بنا.

وقفنا كأنما لم يحدث أي شيء، فلم يكن قد أتيح لنا الوقت لنتمالك أنفسنا. وعند اجتياز الممر؛ سمعنا الموسيقى القريبة تتحرك في اتجاهنا، وشعرنا برائحة النسوة الحزينات، وهن جالسات ينتظرن، وبينما كنا نتجه نحو الباب؛ شعرنا بالفضاء المتسع للممر قبل أن تلقانا الرائحة الأخرى، الرائحة الرديئة الصادرة عن المرأة الجالسة إلى جوار الباب، قلنا:

– نحن ذاهبون.

لم تنطق المرأة بأي كلمة، ولكنا سمعنا قرقعة الكرسي، عندما حاولت المرأة النهوض، شعرنا بوقع الأقدام الثقيلة على الألواح الخشبية، ثم شعرنا بعودة المرأة إلى مكانها مرة أخرى بعد أن أغلقت الباب خلف ظهورنا.

درنا حول المكان، في الخلف، كانت هناك ريح قارصة وقوية

لفجر خفي، وقال صوت:

- ابتعدوا، لقد ضقت بهذا.

تراجعنا إلى الخلف، وعاد الصوت يقول:

- إنكم ما زلتم أمام الباب.

حينئذ تحركنا نحو كل الاتجاهات، ولكننا التقينا بالصوت فى جميع الأركان، قلنا:

- لا نستطيع الخروج من هنا، لقد نقرت طيور الكروان عيوننا.

بعد ذلك سمعنا أبوابًا عديدة تفتح، أفلتَ أحدنا يديه من أيدي الآخرين، وسمعناه وهو يترنح في الظلام ويرتطم بالأشياء التي تحيط بنا، تحدث من مكان ما في الظلام، قال:

- أعتقد أننا قريبون، فهنا تفوح رائحة صناديق مكدسة.

شعرنا مرة أخرى بتلامس يديه، استندنا إلى الحائط، عندئذ مر بنا صوتٌ آخر، ولكنه مر في اتجاه عكسي. قال أحدنا:

- أنها توابيت.

قال الذي ارتطم بالركنِ بعد أن عاد يتنفس من جديد إلى جوارنا:

- إنها صناديق، تعلمت منذ طفولتي أن أميز رائحة الثياب المخزونة.

ثم تحركنا نحو ذلك الاتجاه، كانت الأرض لينة وناعمة، مثل أرض مدكوكة، مدّ أحدهم يده، فشعرنا بملمس جلد طويل يفيض بالحياة، لكنا فقدنا الإحساس بالحائط المواجه لنا من الجانب الآخر.

قلنا:

- إنها امرأة.

الآخر الذي كان قد تحدث عن الصناديق، قال:

- أعتقد أنها نائمة.

اهتز الجسد تحت أيدينا، ارتعش، شعرنا به، وهو ينزلق مبتعدًا ولكن ليس كما لو كان قد ابتعد عن متناول أيدينا، بدا كما لو كان قد اختفى، ومع ذلك سمعنا صوتها بعد لحظة ظللنا فيها ساكنين

متصلبين نستند كتفاً إلى كتف. قالت:

- من يجوس هنا؟

أجبنا دون أن نتحرك:

- إننا نحن.

سمعنا الحركة في الفراش، سمعنا الفرقعة وحركة الأقدام التي تبحث عن النعلين في الظلام، فتصورنا المرأة جالسة تنظر إلينا. قالت:

- ماذا تفعلون هنا؟

قلنا:

- لا ندرى، لقد نقرت طيور الكروان عيوننا.

قالت إنها سمعت بشيء من هذا القبيل، فالصحف قالت إن ثلاثة رجال كانون يحتسون البيرة في أحد الأفنية؛ حيث كانت هناك خمسة أو ستة من طيور الكروان، سبعة من طيور الكروان، وإن أحد هؤلاء الرجال غنى كالكروان مقلدًا الصوت. قالت:

- أسوأ ما في الأمر أنه تأخر ساعة؛ وعند ذلك قفزت الطيور على المائدة ونقرت عيونهم.

قالت إن هذا هو ما قالته الصحف، ولكن أحداً لم يصدق، فقلنا نحن:

- لو ذهب الناس إلى هناك لشاهدوا طيور الكروان.

قالت المرأة :

- لقد ذهبوا في اليوم التالي، وكان الفناء مزدحمًا بالناس، لكن المرأة كانت قد نقلت طيور الكروان إلى مكان آخر.

عندما استدرنا، توقفت المرأة عن الحديث، فعثرنا على الحائط من جديد، فقط كنا نلتقي بالحائط بمجرد الدوران حول أنفسنا، بالنسبة لنا كنا نلتقي دائمًا بإحدى الجدران، ومرة أخرى انفلت أحدنا من أيدينا، وسمعناه يبحث عنا من جديد، متشمماً الأرض.

قائلاً:

- والآن لا أدري أين الصناديق، أعتقد أننا في مكان آخر.

قلنا:

- تعال هنا، شخص ما يوجد إلى جوارنا.

سمعناه وهو يقترب منا، وشعرنا به ينتصب واقفاً إلى جوارنا وتنفسه الدافئ يلفح وجوهنا من جديد. قلنا له:

- هناك من يعرفنا، مد يديك إلى هناك.

يبدو أنه مد يديه في الاتجاه الذي أشرنا عليه؛ لأنه عاد بعد لحظة، ليقول لنا:

- أعتقد أنه صبي.

قلنا له:

- رائع ، سَلْهُ إن كان يعرفنا.

طرح السؤال. سمعنا صوت الصبي البسيط اللا مبالي الذي قال:

- نعم أعرفكم، أنتم الرجال الثلاثة الذين نقرت طيور الكروان عيونهم بعد ذلك تحدث صوت ناضج، كان صوت امرأة بدا أنها تختبئ خلف باب مغلق. قالت:

- أتحادث نفسك؟

قال الصوت الطفولي بلا مبالاة:

- لا ، إنهم الرجال الذين نقرت عيونهم طيور الكروان جاءوا إلى هنا مرة أخرى.

سمعنا صرير مفصلة الباب، وبعد ذلك سمعنا الصوت الناضج الذي بدا أكثر اقتراباً من المرة الأولى.

قالت المرأة :

- قُدهم إلى ديارهم.

قال الصبي:

- لا أعرف أين يسكنون.

قال الصوت الناضج:

- لا تكن وضيعاً، فالكل يعرف أين يسكنون منذ الليلة التي نقرت فيها طيور الكروان عيونهم.

ثم واصلت الحديث بنغمة مختلفة، وبدت كما لو كانت تُوَجِّه الحديث إلينا:

- ما حدث هو أن أحداً لا يصدق هذا الأمر، ويقولون إنه خبر كاذب لفقته الصحف لزيادة التوزيع، ولم يشاهد أحد طيور الكروان.

قال الصبي:

- لكن لن يصدقني أحد لو سرتُ بهم في الطريق.

لم نتحرك، ظللنا فى سكون تام نستند إلى الجدار، ونصغي لهما، قالت المرأة:

- لو أصطحبكم الصبي، فالأمر سيكون مختلفًا، فلن يكترث أحد بما يقوله الصبي.

قاطعها الصوت الطفولي:

- لو سرت معهم في الشارع، وقلت إنهم الرجال الذين نقرت عيونهم طيور الكروان، سيقذفني الصبية بالحجارة، والجميع في الشارع سيقولون إن هذا لا يمكن أن يحدث.

سادت لحظة من الصمت، وبعد ذلك أُغلق الباب، وعاد الصبي للحديث:

- وأيضاً فأنا أقرأ الآن رواية "تيري والقراصنة".

همس لنا شخص ما:

- سأقنعه.

سار باتجاه الصوت، وقال :

- أنا أحب هذه الرواية، قل لنا ما حدث لـ"تيري" هذا الأسبوع.

اعتقدنا أنه يحاول كسب ثقته. لكن الصبي قال:

- هذا لا يثير اهتمامي، أنا أحب الألوان.

قلنا:

- كان "تيري" قد وقع في مشكلة.

قال الصبي:

- ذلك كان يوم الجمعة، أما اليوم فهو الأحد، وأنا أحب الألوان.

قال ذلك بصوتٍ فاترٍ لا مبالٍ وبلا اهتمام. وحينما عاد الآخر، قلنا:

- لقد ضللنا الطَّريق منذ ثلاثة أيام، ولم نسترح لحظة واحدة،

قال أحدنا:

- ليكن .. هيا نستريح لبعض الوقت، ولكن دون أن تفلت أيدينا.

جلسنا، وكانت هناك شمس خفيفة بدأت تبعث الدفء في أكتافنا، ولكن وجود هذه الشمس لم يُثر اهتمامنا، شعرنا بها تنبعث من مكان ما، لقد فقدنا الإحساس بالزمان والمكان والاتجاه، مرت بنا أصواتٌ عديدة. قلنا:

- لقد نقرتْ طيور الكروان عيوننا.

قال أحد الأصوات:

- هؤلاء يصدقون كلام الصحف.

تبددت الأصوات، وبقينا جالسين، هكذا، كتفًا إلى كتف، بينما كانت تمر بنا الأصوات، وكنا نتخيل أنه سَتَمُر رائحة أو صوت معروف، ولكن الشمس واصلت الدفء وقد علت رؤوسنا، قال أحدنا:

- هيا بنا نحو الحائط مرة أخرى.

قال الآخرون وهم لا يزالون في سكونهم، ورؤوسهم مرفوعة نحو الضوء الخفي:

- ليس الآن. لننتظر إلى أن تحرق الشمس وجوهنا.

الفهرس


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET